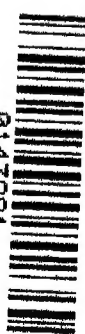


مصحف
وإبتسامة



Bibliotheca Alexandrina

دار
الكتاب



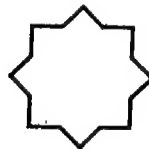
0143891

٢ ش الفجالة - القاهرة

دمعة وإبتسامة

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير
العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر
بك ألا تقرأ جبران ... »



دار العرب
للطباعة

٢٨ ش الفجالة — القاهرة

إلى

M. E. H.

أقدم هذا الكتاب ، وهو أول نسخة من
عاصفة حياتي ، إلى الروح النبيلة التي تحب
النسمات وتسير مع العواصف .

جيران

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران في الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة إلى صيفها ، فمت آمياله ونضجت أفكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعري إلى عالم أسمى وأوسع يتعانق فيه الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى في جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبابة المبادئ الأساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ، فالشباب الحساس الذي كتب «دمعة وابتسامة» بقلم محبر بالدمع قد تحول إلى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة «جمال الموت» وحكاية «حفار القبور» هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التي كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت اليوم بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هي من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه .

ولكن لو تمنعنا مليا بمجموع كتابات جبران وتآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة ، لوجدنا أن «دمعة وابتسامة» مقالا خاصاً بها لأنها كانت أول نغمة من نوعها في العالم العربي ، فقد خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات ، لأنها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها ويتأثر لها الطالب في مدرسته والمتأدب في

مكتبته والصحافي في إدارته .

عندما ظهرت « دمة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء في مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان أكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً ، ولكن لما ابتداء جبران بنشر « دمة وابتسامة » غير الناس أفكارهم وعلموا للمرة الأولى أن الشاعر الحقيقي هو الذي يضرب بأصابعه السحرية على أوتار قلوبهم ، ويعيد على مسامعهم في اللحظة ما تسمعه أرواحهم في المنام . ومن ذلك الحين ابتداء فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمة وابتسامة » والنسج على منوالها ، فلم يمر عامان أو ثلاثة على ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ وأتباع منتشرون في كل مكان من العالم العربي .

عندما طلبنا إلى جبران جمع « دمة وابتسامة » ونشرها في كتاب ، أجابنا بيت من أحد موشحاته قائلاً :

« ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشبيب وشكوى ونواح »
 فقلنا له « ذاك عهد من حياتك قد مضى ، ولكنه لم يزل حاضراً في حياة محبك ومريدك » .

فأجابنا « إن الشاب الذي كتب قد ترم بأغنية علوية قبل أن يموت .
 قلنا له : وعلينا أن نحفظ تلك الأغنية كيلا تتلاعب بها أيدي الضياع » .

— ٥ —

فأجابت « افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد
تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ،
ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء ، فهو صديق الناس وعدوهم في وقت
واحد » .

فقلنا له « سوف لا ننسى وإن حاولنا التناسي ففي « حفار القبور »
ما ينبهنا ويذكرنا » .

نسيب عريضة

نيويورك في ٢٤ نيسان « أبريل » سنة ١٩١٤

دمعة وابتسامة

توطئة

أنا لا أبذل أحزان قلبي بأفراح الناس ، ولا أرضى أن تنقلب الدموع
التي نستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكا . أتمنى أن تبقى حياتي
دمعة وابتسامة . دمعة تطهر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها ،
وابتسامة تدنيني من أبناء مجدي وتكون رمز تمجيدى الآلهة — دمعة
أشارك بها منسحقى القلب ، وابتسامة تكون عنوان فرحى بوجودى .
أريد أن أموت شوقا ولا أحيا مللا . أريد أن تكون فى أعماق نفسى
مجاوعة للحب والجمال ، لأنى نظرت فرأيت المستكفين أشقى الناس
وأقربهم من المادة ، وأصغيت فسمعت تهديدات المشتاق المتمنى أعذب من
رنات المثاني والمثالث .

يأتى المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها ، وعندما يأتى
الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس ، فحياة الأزهار شوق
ووصال .. دمعة وابتسامة . تبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير
غيمة ، وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا مالاقت نسمات لطيفة
تساقطت باكية نحو الحقول ، وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر
موطنها . حياة الغيوم فراق ولقاء .. دمعة وابتسامة . كذا النفس تنفصل
عن الروح العام وتسير فى عالم المادة ، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان
وسهول الأفراح فتلتقى بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت . إلى بحر
المحبة والجمال . إلى الله ..

حياة الحب

الربيع .. هلمى يا محبوبتى نمشى بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج
وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الأودية والمنحدرات . سبرى معى
لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعالى لنصعد إلى أعلى الرى
ونأمل فى تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوبا طواه ليل الشتاء ، فاكست به أشجار
الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ، واستيقظت الكروم
وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين
الصخور مرودة أغنية الفرح ، وانبتقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق
الزبد من البحر .

تعالى لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ، ونملأ أنفسنا
بأغاني العصفير المسرورة ، ونغتئم استنشاق عطر النسيمات .
لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ، ونبادل قبلات
الحبة .

الصيف .. هيا بنا إلى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيام الحصاد ، وبلغ
الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالى قبل أن تسبقنا
الطيور فتستغل أتعابنا . وجماعة الثمل فتأخذ أرضنا . هلمى نحن ثمار
الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعناها

الحبة فى أعماق قلبينا ، ونملاً المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة
أهراء عواطفنا .

هلمى يارفيقتى نفترش الأعشاب وثلثحف السماء ونوسد رأسينا
بضغت من القش الناعم ، ففترتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير
الوادی .

الحريف .. لنذهب إلى الكرمة يا محبوبتى ونعصر العنب ونوعيه فى
الأجران مثلما توعى النفس حكمة الأجيال ، ونجمع الأثمار اليابسة
ونستقطر الأزهار ونستعيض عن العين بالأثر .

لنرجع نحو المساكن ، فقد اصفرت أوراق الأشجار ونثرها الهواء
كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عندما ودعها الصيف . تعالى
فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض ، وخلفت
الوحشة للياسمين والسيسان فبكى باق الدموع على أديم التراب .

لنرجع ! فالجدول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع
فرحها ، والطلول خلعت باهى أثوابها . تعالى يا محبوبتى ، فالطبيعة قد
راودها النعاس فأمست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

الشتاء .. اقترنى يا شريكة حياتى ، اقترنى منى ولا تدعى أنفاس
الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة
الشتاء الشهية . حدثينى بما تآتى الأجيال ، فأذانى قد تعبت من تأوه
الرياح وندب العناصر . أوصدى الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو
الغضوب يحزن نفسى ، والنظر إلى المدينة الجالسة كالشكى تحت أطباق
الثلوج يدمى قلبى .. اسقى السراج زيتاً يارفيقة عمرى ، فقد أوشك أن

— ٩ —

ينطفئ ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالى على وجهك .. إيتى
 بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر .
 اقترنى ! اقترنى منى يا حبيبة نفسى فقد خمدت النار وكاد الرماد
 يخفيها . ضميني فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة .. ها قد أثقلت
 أعيننا خمرة السنين .. أرمقيني بعين كحلها النعاس .. عانقيني قبل أن
 يعانقنا الكرى- قبليني فالثلج قد تغلب على كل شىء إلا قبلك .. آه
 يا حبيبتى ما أعمق بحر النوم . آه ما أبعد الصباح .. فى هذا العالم .

حكاية

على ضفة ذلك النهر ، فى ظل أشجار الجوز والصفصاف جلس ابن زراع يتأمل فى المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى رُقى بين الحقول حيث يتكلم كل شىء عن الحب . حيث الأغصان تتعانق والأزهار تتمايل ، والطيور تتشعب . حيث الطبيعة بأسرها تركز بالروح . ابن عشرين رأى بالأمس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ، ثم علم أنها ابنة الأمير فلام قلبه وشكا نفسه إلى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعدل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن لين فى مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان ، ثم سمع الهزاز يناجى الشحرور فبكى لوحده وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الأشباح ، فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

— « هو ذا الحب يستهزى بى . ها قد جعلنى سخرية وقادنى إلى حيث الآمال تعد عيوباً والأمانى .. مذلة . الحب الذى عبدته قد رفع قلبى إلى قصر الأمير وخفض منزلتى إلى كوخ الزراغ ، وسار بنفسى إلى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع .. أنا طائع أيها الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبيل نارية فلذعننى اللهب . قد

فتحت عيني فلم أر غير الظلمة ، وأطلقت لساني فلم أتكلم بغير الأسى .
 قد عانقني الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب .
 أنا ضعيف أيها الحب فلم تخاصمني وأنت القوي ؟ لماذا تظلمني وأنت
 العادل وأنا البرئ ؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري ؟ لماذا تتخلى عني
 وأنت موجودي ؟ إن جرى دمي بغير مشيقتك فأهريقه ، وإن تحركت
 قدماي على غير طرقك فشلهما — افعل مشيقتك بهذا الجسد وخل نفسي
 تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحك .. الجداول تسير إلى حبيبها
 البحر ، والأزهار تنسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها
 الوادي . وأنا وبى مالا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه
 الغيوم ، قد رأيتني وحيداً في محنتي ، منفرداً في غرامي ، بعيداً عن التي
 لا تريدني جندياً في كتائب أيها ولا ترضاني خادماً في قصرها .

وسكت الفتى هنيئة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر
 وحفيف أوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

— « وأنت يا من أخاف من أمها أن أدعوها باسمها ، أيتها المحجوبة
 عني بستائر العظمة وجدران الجلال . أيتها الحورية التي لا أطمع بلقائها
 إلا في الأبدية حيث المساواة . يا من تطيعها الصوارم وتنحني أمامها
 الرقاب وتفتح لها الخزائم والمساجد ! قد ملكت قلباً قدسه الحب ،
 واستعبدت نفسها شرفها الله ، وخلبت عقلاً كان بالأمس حراً ببحرية هذه
 الحقول ، فصار اليوم أسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتك أيتها الجميلة
 فعرفت سبب مجيئي إلى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى
 حقارق علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفها الإنسان ، وسبلاً تذهب

بالأرواح إلى حيث المحبة تقضى بغير الشرائع البشرية . أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هذه الحياة فردوس بابہ القلب البشرى ، ولما رأيت شرفك وذلى يتصارعان صراع مارد ورثبال ، علمت أن هذه الأرض لم تعد وطنألى . ظننت لما وجدتک جالسة بين نسائك كالوردة بين الرياحين ، أن عروس أحلامى قد تجسدت وصارت بشراً مثلى ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشواكا تدمى الأصابع ، وأن ما تجمععه الأحلام تفرقه اليقظة ... »

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسما الأسى والقنوت بهذه الكلمات :

— « تعال يا موت وأنقذنى ، فالأرض التى تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن . هلم وخلصنى من أيام تخلع الحب عن كرسى مجده وتقيم الشرف العالى مكانه . خلصنى يا موت فالأبدية أجدر ببقاء المحبين من هذا العالم . هناك أنتظر حبيبتى ، وهناك أجتمع بها . » .

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبى عن الحقل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته أقدام ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه عن الخروج .

فى تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبية تجر أذيالها على الأعشاب ، ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجتأ على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفثيه ، وقبلت عينيه راشقة المدامع
السخينة ، وقالت بصوت ألطف من نعمة الناي :

— « قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ، ونظرت وجهك في وحدتي
وانقطاعي ، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ، ونصفي الجميل الذي
انفصلت عنه عندما حكم على بالجيء إلى هذا العالم . قد جئت سراً
يا حبيبي لألتقي بك ، وها أنت الآن بين ذراعي فلا تجزع ! قد تركت
مجد والدي لأتبعك إلى أقاصي الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت .
قم يا حبيبي فنذهب إلى البرية البعيدة عن الإنسان » .

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش
الأمير ولا أشباح الظلمة .

هناك في أطراف البلاد عثر رواد الأمير على هيكلين بشريين في عنق
أحدهما قلادة ذهبية ، وبقرهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :
« قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ » .

في مدينة الأموات

تملصت بالأمس من غوغاء المدينة ، وخرجت أمشي في الحقول
الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت
وقد بانَت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت
غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الإنسان فوجدت أكثرها عناء ،
فحاولت في قلبي ألا أفكر بما صنعه ابن آدم ، وحولت عيني نحو الحقل ،
كرسى مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الأحداث الرخامية
المحاطة بأشجار السرو .

هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات جلست أفكر .. أفكر في
كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة
والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة
وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الأخرى تراب في تراب
تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً ، وكل ذلك يتم في
سكينة الليل .

بيناً أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات ، استلقت ناظري جمع غفير
يسير الهويناء تتقدمه الموسيقى وتملاً الجو ألحاناً محزنة .. موكب جمع بين
الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس . جنازة غنى قوى .. رفات

ميت تتبعها الأحياء وهم ييكون ويولولون وييشون بالهواء الصراخ
والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون
ينفخون الأبواق ، وبعد قليل انبرى الخطباء فأبَنُوا الراحل بمنتقيات
الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني ، وكل ذلك كان يتم بتطويل
ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون
والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمقة بأيدي المتقنين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكر ، ومالت الشمس
نحو الغروب ، واستطالت خيالات الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة
تخلع أثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ، وراءهما
امرأة ترتدى أطماراً بالية وهي حاملة على منكبيها طفلاً رضيعاً ، وبجانبا
كلب ينظر إليها تارة وإلى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها
زوجة تذرف دموع الأسى ، وطفل ييكي لبكاء أمه ، وكلب أمين يسير
وفي مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن
الأجداث الرخامية ، ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يلتفت نحو محط
رجال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الأشجار .

فالتفت إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي : تلك للأغنياء
الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : هذه للأغنياء الأقوياء فأين
موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة ، وسمعت صوتاً من داخل يقول .. هناك .

موت الشاعر حياته

خيم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوبا ، وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاخْتَبأ في أوكاره ، وقامت الأرياح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الموت .

وكان في أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط ، وفي إحدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليه محتضر ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل اعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الأمل ، وعلى شفثيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الإنسان بأقواله الجميلة يموت جوعاً في مدينة الأحياء الأغنياء . نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة ، تودع دنياها قبل أن تبتسم لها الإنسانية . منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته ، وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة .

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ، ورفع يديه نحو العلواء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال :

تعالى أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسى . اقترنى وحلى قيود المادة

فقد تعبت من جرّها . تعالى إلى يا أيتها المنية الحارة وأنقذيني من بين البشر الذين يحسبوننى غريباً عنهم لأننى أترجم ما أسمعهم من الملائكة إلى لغة البشر . أسرعى نحوى فقد تخلى عنى الإنسان وطرحنى فى زوايا النسيان لأننى لم أكن طامعاً بالمال نظيره ، ولا باستخدام من هو أضعف منى . تعالى إلّى أيتها المنية العذبة وخذينى فأولادى بجدق لا يحتاجونى . ضمّينى إلى صدرك المملوء محبة . قبل شفتى التى لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغرى المحبوبة . أسرعى وعانقينى يا حبيبتى المنية .

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشرى ، ترتدى ثوباً ناصعاً كالثلج ، وتحمل بيدها إكليل زنايق من نبت الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته وأغمضت عينيه كى يراها بعين نفسه ، وقبلت شفتيه قبلة محبة .. قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

فى تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً إلا من التراب وبعض أوراق منشورة فى زوايا الظلمة .

مرت الأجيال وسكان تلك المدينة غرقى فى سبات الجحود والإهمال ، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيماً فى وسط الساحة العمومية ، وعيّدوا له فى كل عام عيداً ..
آه ما أجهل الإنسان !

بنات البحر

في أعماق البحر الذى يحيط بالجزائر القريية من مطلع الشمس .. هنالك في الأعماق حيث الدر الكثير ، جثة فتى هامة بقرها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية ، قد جلسن بين بنات المرجان ينظرن إليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ، ويتحدثن بأصوات موسيقية حديثاً سمعته اللجة فحملته الأمواج إلى الشواطئ فجاء به النسيم إلى نفسى .

قالت واحدة : « هذا بشرى هبط بالأمس إذ كان البحر حانقاً » .
فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقاً ولكن الإنسان — وهو الذى يدعى بأنه من سلالة الآلهة — كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزيًا ، وهذا البشرى هو قاتل الحرب » .

فقالت الثالثة : « لا أدري ما هي الحرب ، ولكنى أعلم أن الإنسان بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ، ومخر العباب فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدى ، فلم ير الإنسان بدأ إذ ذاك من إرضاء مليكنا بالذبائح والهدايا ، فالأشياء التى رأيناها بالأمس هابطة هي آخر تقدمه من الإنسان إلى نبتون العظيم » .

قالت الرابعة : « ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه ! لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالى لنرى جثة هذا الشاب

فرجما أفادتنا شيعاً عن طائفة البشر » .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه ، فأخذت الرسالة واحدة منهن وقرأت :

يا حبيبي ! ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لي مسل غير دموعي ، ولا معز سوى أملى برجوئك إلي من بين مخالف الحرب ، ولا أقدر أن أفكر إلا بما قلته لي عند الوداع بأن عند كل إنسان أمانه من الدم لا بد من ردها يوماً ... لا أدري يا حبيبي ماذا أكتب ، بل أترك نفسي تسيل على الورق .. نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الألم لذة والأحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب فاتبعها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء ويمنم الأطفال ؟ ما هذه الوطنية التي من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذي لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ؟ إذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج السكينة حياة الإنسان فسلام على الواجب والوطنية .. لا لا يا حبيبي لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ، ولا تسمع كلام ابنة أعماماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق .. إذا كان الحب لا يرجعك إلى هذه الحياة فالحب يضمني إليك في الحياة الآتية » .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن :

« إن قلب الإنسان أقسى من قلب نبتون »

النفس

... وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالا ، وأعطها ورقة
 نسيمات السحر وعطر أزاهر الحقل ولطف نور القمر .
 ووهبها كأس سرور وقال : لن تشرى منها إلا إذا نسيت الماضي ،
 وأهملت الآتي ، وكأس حزن وقال : تشرى منها فتدركين كنه فرح
 الحياة .
 وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء ، وحلاوة تخرج منها مع
 أول كلمة ترفع .
 وأسقط عليها علماً من السماء ليرشدها إلى سبل الحق .
 ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى .
 وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح . وألبسها
 ثوب شوق حاكمة الملائكة من تموجات قوس القزح ، ثم وضع فيها ظلمة
 الحيرة وهي خيال النور .
 وأخذ الإله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ،
 ورملا من على شاطئ بحر الأنانية ، وتراباً من تحت أقدام الدهور . وجبل
 الإنسان .
 وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات .
 ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .
 وابتسم إله الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى ، وجمع
 بين الإنسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

لمت الشمس أذيالها عن تلك الحدايق الناضرة ، وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نوراً لطيفاً ، وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمل في انقلاب الجو من حالة إلى حالة ، وأنظر من خلايا الأغصان إلى النجوم المنشورة كالدراهم على بساط أزرق ، وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة ، وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة ، سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب فحولت نظري ، وإذا بفتى وفتاة يقتربان مني ثم جلسا تحت شجرة غضة وأنا أراهما ولا أرى .

وبعد أن تلفت الفتى إلى كل ناحية سمعته يقول : « اجلسي بجانبى يا حبيبتى واسمعي . ابتسمي لأن ابتسامتك هي رمز مستقبلنا ، وافرحي لأن الأيام قد فرحت من أجلنا . حدثني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك ، والشك في الحب إثم يا حبيبتى . عن قريب تصيرين سيدة هذه الأملاك الواسعة التي ينبرها ذلك القمر الفضى ، وربة هذا القصر المضامى قصور الملوك ، تجرّك خيولى المطهمة في المتنزهات وتذهب بك مركباتي الجميلة إلى المراقص والملاهي . ابتسمي يا حبيبتى كما يبتسم الذهب في خزائني ، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي . اسمعي

يا حبيبتي فقد أبى قلبي ألا يسكب أمامك مخباته . أمامنا سنة العسل ..
سنة نصرها مع الذهب الكثير على شواطئ بحيرات سويسرا ، وفي
متنزهات إيطاليا ، وقرب قصور النيل ، وتحت أغصان أرز لبنان .
سوف تلتقين بالأميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملايسك .
كل ذلك لك منى ، فهلاً رضيت ! آه ما أحلى ابتسامتك تحاكي ابتسام
دهرى » .

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامهما كما
تدوس قدم الغنى قلب الفقير .

غابا عن بصرى وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . أفكر بالمال مصدر
شرو الإنسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظللت تائهاً في مسارج هذه الأفكار حتى لحت شبحين مرا من أمامي
وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ
الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكونة مؤثرة سمعت هذا الكلام
صادراً مع تهديدات عميقة من فم مصدر : « كفكفى الدمع يا حبيبتي .
إن المحبة التي شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهينا نعمة الصبر
والتجلد . كفكفى الدمع وتعزى لأننا تحالفنا على دين الحب ، ومن أجل
الحب العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد
لى من مصارعة الأيام حتى أظفر بغنيمة تليق بأن أضعها بين يديك
تساعدنا على قطع مراحل العمر . إن المحبة يا حبيبتي — وهى الله —
تقبل منا هذه التهديدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهى تكافئنا عليها
بقدر ما نستحق . أودعك يا حبيبتي فأنا راحل قبل أن يغيب القمر » .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات أنفاس ملتبة . صوت عذراء لطيفة أودعته كل ما في جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول « الوداع يا حبيبي » .

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبنى أيدي الشفقة وتتساهمنى أسرار هذا الكون الغريب .

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة ، وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لا حد له ولا نهاية .. شيئاً لا يشتري بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميتته حزن الشتاء . شيئاً لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزهات إيطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيا في الربيع ويثمر في الصيف .. وجدت فيها المحبة .

رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلورى رأيت قفصاً حبكت
 ضلوعه يد ماهرة . وفي إحدى زوايا القفص عصفور ميت ، وفي زاوية
 أخرى جرن جف مأؤه وجرن نفدت بذوره .
 فوقفت وقد امتلكتنى السكينة ، وأصغيت صاغراً كأن فى الطائر
 الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب . وتأملت
 فعلمت أن ذلك العصفور الحقيق قد صار ع طشاً وهو بجانب
 مجارى المياه وغالبه جوعاً وهو فى وسط الحقول التى هى مهد الحياة ،
 كغنى أقفلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب .
 وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكلاً لإنسان
 شفافاً ، وتحول الطائر الميت إلى قلب بشرى فيه جرح عميق يقطر دماً
 قرمزياً ، وقد حاكت جوانب الجرح شففى امرأة حزينة .
 ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً :
 « أنا هو القلب البشرى أسير المادة ، وقتيل شرائع الإنسان الترابى فى
 وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة أسرت فى قفص الشرائع التى
 سنّها الإنسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدي المحبة مت
 مهملاً ، لأن ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرماً على كل ما
 يشوقنى . صار كل ما يشوقنى يعرف الإنسان عاراً ، وجميع ما أشتيه

أصبح في قضائه مذلة .

أنا القلب البشرى قد حبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت ،
وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت في زوايا غي المدينة
فقضيت ، ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهى تبسم .
سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب
الجريح ، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت لحقيقتى .

الجمال

« أن الجمال دين الحكماء »

شاكر هنرى

يا أيها الذين حازوا في سبيل الأديان المتشعبة ، وهاموا في أودية
الاعتقادات المتباينة ، فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ،
ومسارج النكران أسلم من معاقل الأتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً ،
فهو الظاهر في كمال المخلوقات ، البادى في نتائج المعقولات . انبذوا الألى
مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل ، وآمنوا
بالوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ، ومنع محبتكم السعادة ، ثم
توبوا إليه فهو المقرب لقلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم ، والمدرّب
أنفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا أيها الذين ضاعوا في ليل التقولات ، وغرقوا في لجج الأوهام ، إن
في الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونورا باهرا يقيكم ظلمة

البطل . تأملوا في يقظة الربيع ومجيء الصبح ، إن الجمال نصيب المتأملين .

أصغوا لأنغام الطيور ، وحفيف الأغصان ، وخرير الجدول .. إن الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ .. إن الجمال فتنة الناظرين .

تشبها بنرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم .. إن الجمال يتمجد بالمتشبهين . سبحوا لغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق .. إن الجمال يسر بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلا للحسن ؛ وقدسوا القلب مذبحاً للحب .. إن الجمال يجازى المتعبدين .

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال ، وافرحوا إذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبرى

« هنا رفات من كتب اسمه بماء »

جان كيتس

أهكذا تمر بنا الليالى ؟ أهكذا نندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذا تطوينا الأجيال ولا نحفظ لنا سوى اسم نخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟ أينطفئ هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه الأمانى ؟ أيهدم الموت كل ما نبنيه ويذرى الهواء كل ما نقوله ويخفى الظل كل ما نفعله ؟ أهذه هى الحياة ؟ هل هى ماض قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقا بالماضى ، ومستقبل لامعنى له إلا إذا ما مرو صار حاضرا أو ماضيا ؟ أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن !

لا لعمري فحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداءؤها فى الرحم ولن يكون منتهائها فى اللحد . وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية . هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى ندعوها الموت الخفيف ، حلم ولكن ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى بقاء الله .

فالأثير يجعل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصى كل دمة يقطرها الحزن من مآقينا وتعيد على مسمع الأرواح السابحة في فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك في العالم الآتى سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه ألو هيتنا التى نحترقها الآن مدفوعين بعوامل القنوط . الضلال الذى ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر فى الغد كحلقة كيائها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم .

الأتعاب لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الأرزاء التى نحتملها ستكون إكليلاً لفخرنا .

هذا ولو علم « كيتس » ذلك البلبل الصداح أناشيده لم تزل تبث

روح محبة الجمال فى قلوب البشر لقال : « احفروا على لوح قبرى —

هنا بقايا من كُتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار » .

بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقاً لطيفاً ، وظفر
الهدوء بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبار يهزأ
بعاديات الليالي .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من
بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذاك البناء
الغريب يتأملان بمحيط يحاكي مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما
رأسه وبصوت يشبه الصدى الذي تردده خلايا الأودية البعيدة قال :
« هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتي . وتلك رمم قصر رفعته
لاستحسانك ، وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الأُم بمجد
صرفت الحياة لتعظيمه ، وعز استخدمت الضعفاء لتعظيمه . تأمل
يا محبوبتي فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الأجيال
حكمة رأيها ، وأضاع النسيان ملكا رفعت ، ولم يبق لي سوى دقائق المحبة
التي أولدها جمالك ، ونتائج الجمال الذي أحياه حبك . بنيت هيكلا
بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات . صرفت العمر
مستفسراً ظواهر الأشياء مستنطقاً أعمال المادة ، فقال الإنسان « ما
أحكمه ملكا : » وقالت الملائكة « ما أصغره حكيماً : » ثم رأيتك يا محبوبتي
وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ، ففرحت الملائكة أما الإنسان

فلم ينتبه .. كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستقر في الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط ، حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس ، فخافتني القبائل . ولما أنارتني المحبة احتُفرت حتى من شعبي ، ولكن عندما جاء الموت أودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتي إلى الله .
وبعد سكينه قال الخيال الثاني : « مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب ، كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاها قوة وحكمة . »

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الأنحاء : « لا تحفظ الأبدية إلا المحبة لأنها مثلها » ..

رؤيا

أرفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس (س . ل)

جوابا على رسالة أكرمتمني بها

مشى الشاب أمامي فاتبعته مسيره ، حتى إذا بلغنا حقلا بعيدا وقفت متأملا الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطع نعاج بيضاء ، والأشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاء أوراقها الغضة ، فقلت أين نحن أيها الشباب ؟ قال : في حقول الحيرة فانتبه . قلت لنرجع ! لأن وحشة المكان تخيفني ومرأى النجوم والأشجار العارية يحزن نفسي . قال : اصبر ، فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فإذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغربا : من هذه ؟ قال : هي مليونين ابنة جوبيتر وربة الروايات المحزنة ^(١) قلت : وماذا تبتغي الأحران مني ، وأنت بجانب أيها الشاب المفرح ؟ قال : جاءت

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات « ميوز » ، وكانت كل منها توحى إلى مريدها بحسب محبته لها وأهليته لعطاياها . وهذه اسمائهن : « مليونين » ربة الروايات المحزنة . « بولينيا » ربة الشعر والغناء . « ثاليا » ربة الشعر الهزلي . « كاليوب » ربة الفصاحة والشعر الحماسي . « أراتو » ربة الموشحات والغزل . « ترسكوري » ربة الرقص . « أورانيا » ربة علم الفلك . « كليو » ربة التاريخ . « أوترى » ربة فن الموسيقى .

لتريك الأرض وأحزانها ، من لا يرى الأحزان لا يرى الفرح . ووضعت الحورية يدها على عيني ، ولما رفعتها رأيتني منفصلاً عن شبابي مجرداً من ثوب المادة ، فقلت : أين الشباب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحيها وطارتنى إلى قمة جبل عال ، فرأيت الأرض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة ، وأسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط ، فوقفت متبهاً بجانب الحورية متأملاً خفايا الإنسان ، مستفسراً رموز الحياة . رأيت ولتيتنى لم أر . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء ، والإنسان بينهما فى حيرة تميل به نحو الآمال تارة والقنوط أخرى . رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشرى . هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح . رأيت المدينة جالسة كاهنة الأزقة متشبثة بأذيال ابن آدم ، ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكى من أجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يمتثلون على ميول النفس ، والإنسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهى نافرة عنه غضبى عليه لأنه لم يسمعها عندما نادته فى الشوارع على رؤوس الأشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم إلى السماء وقلوبهم مطمورة فى قبور المطامع ، رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم ويقتربون بآمال نزقهم ، وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام يسوق الخداع والرياء ، والأطباء يلعبون بأرواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش

المجد ، ويوشد حاضره بساط السعة ، ويمد لمستقبله فراش الفخامة .
 رأيت الفقراء والمساكين يزرعون ، والأغنياء الأقوياء يحصدون
 ويأكلون ، والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت
 لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل ، وحراس النور غرق في كرى
 التواني . رأيت المرأة كالقيثارة في يدرجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه
 أنغاماً لا ترضيه ، رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف
 الموروث . لكنني رأيت كتائب قد انحدرت لأنها قليلة غير متحدة .
 رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها في الشوارع وأمام الأبواب تطلب
 مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس
 يدعونه الحرية . رأيت الدين مدفوناً طي الكتاب والوهم قائماً مقامه .
 رأيت الناس تلبس الصبر ثوب الجبنة ، وتعطي التجلد لقب التواني ،
 ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفل على موائد الآداب يدعى
 والمدعو إليه صامتاً . رأيت المال بين أيدي المبذر شبكة شروره ، وبين
 أيدي البخيل مجلبة لمقت الناس ، وبين أيدي الحكيم لم أر مالا .
 عندما رأيت كل هذه الأشياء صرخت متألماً من هذا المنظر : « أهذه
 هي الأرض يا ابنة الآلهة ؟ أهذا هو الإنسان ؟ فأجابت بسكينة جارحة :
 « هذه طريق النفس المفروشة شوكا وقطربا . هذا ظل الإنسان ، هذا هو
 الليل وسيجيء الصباح ، ثم وضعت يدها على عيني ، ولما رفعته
 وجدتني وشبابي سائراً على مهل ، والأمل يركض أمامي .

الأمس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها أيدي الإنسان ، وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت ، فجلس هناك ينظر آناً إلى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الأفكار من مخيلة العاشق ، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الراية جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته ، فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الإنسان ، واللهفة تعيد إلى قلبه رسوم أيام نسجتها الآلهة حتى أبت لوعته إلا الكلام ، فقال :

« كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة ، وأفرح بالحياة وأنفخ في شبابتي معلناً غبطتي . وها أنا اليوم أسير المطامع يقودني المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ، والانهماك إلى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامى في تلك الحقول . وها أنا الآن سجين عادات الاجتماع أتصنع بملابسى وعلى مائدتي وبكل أعمالى من أجل إرضاء البشر وشرائعهم . كنت أود لو أنى خلقت لأتمتع بمسررات

الوجود ، ولكنى أراى اليوم متعباً بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميها . أين السهول الواسعة ؟ أين السواقي المترنمة ؟ أين الهواء النقى ؟ أين مجد الطبيعة ؟ أين ألوهيتى ؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبق لى غير ذهب أحبه فيستهزىء لى ، وعبيد كثرتهم فقل سرورى ، وصرح رفعته ليهدم غبطتى . كنت وابنة البدو نسير والعباف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا ، واليوم أصبحت بين اللواقى يمشين ممدودات الأعناق غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالأساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان نشترك بإنشاد الأغاني ، نفتسم ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر ، أمشى فى الشوارع فتنتفج على عيون البغض ويشار لى بأصابع الحسد . وإن ذهبت لى المتنزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شاحخة . بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة واليوم سلبتهما . بالأمس كنت غنيا بسعادتى واليوم أصبحت فقيراً بمالى ، وبالأمس كنت ونعاجى مثل ملك رؤوف ورعية واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم .. ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسى ويقودها لى مغائر الجهل ، ولم أدر ما يحسبه الناس مجداً كان واحرق قلباه جميعاً .. » .

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوها مردداً : « أهذا هو المال ؟ أهذا الإله الذى صرت كاهنه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة من يبيعنى فكراً جميلاً بقتطار من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة حبة ؟ من يعطينى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى ؟ » .

ولما وصل إلى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميا إلى أورشليم ،
وأوماً بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عال : « أيها الشعب السالك
في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضي
بالباطل ، المتكلم بالحماسة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار
والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركا بستان
الحياة ؟ لماذا ترتدى الأطمار البالية تاركا ثوب الدمقس ؟ قد انطفأ سراج
الحكمة فاسقيه زيتاً ، وخرب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه ، وسرق
اللص خزائن راحتك فانتبه ! » في تلك الدقيقة وقف أمام الغنى فقير ومد
يده متسولاً ، فنظر إليه وقد انضمت شفاته المرتجفتان ، وانبسبت
سحته المنقبضة ، وانبعث من عينيه نور لطيف . كان بالأمس الذي رثاه
بقرب البحيرة قد مر مسلماً فاقرب من المستعطي وقبله قبله الحجة
والمساواة ، وملأ يده ذهباً ، وقال والرافة تسيل من كلماته : « خذ
يا أخي الآن ، وعد غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم » . فابتسم
الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيد المطر وراح مسرعاً . حينئذ دخل
الموسر إلى قصره قائلاً : كل شيء حسن في الحياة حتى المال لأنه يعلم
الإنسان أمثولة : إنما المال كالأرغن يُسمع من لا يُحسن الضرب عليه
أنغاماً لاترضيه . المال كالحب يميت من يضمن به ويحیی واهبه .

رحماك يا نفس رحماك

حتى مَ تنوحين يا نفسى وأنت عالمة بضعفى ؟ إلى متى تضجين وليس
لدى سوى كلام بشرى أصور به أحلامك ؟

انظري يا نفسى . فقد أنفقتُ عمرى مصغياً لتعاليمك . تأملى
يامعذبتى فقد أتلفت جسمى متبعاً خطواتك .

كان قلبى مليكى فصار الآن عبدك ، وكان صبرى مؤنسى فغدا بك
عذولى ، كان الشاب نديمى فأصبح اليوم لائمى ، وهذا كل ما أوتيته من
الآلهة فمم تستزيدين وبم تطمعين ؟

قد أنكرت ذاتى ، وتركت ملاذ حياتى ، وغادرت مجد عمرى ولم
يبق لى سواك ، فاقضى على بالعدل فالعدل مجدك ، أو استدعى الموت
واعتقى من الأسر معناك .

رحماك يا نفس فقد حملتنى من الحب مالا أطيعه . أنت والحب قوة
متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق . وهل يطول عُراك بين قوى
وضعيف ؟ رحماك يانفس فقد أريتنى السعادة عن بعد شاسع .. أنت
والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى ، وهل يتم لقاء
علو ووطوء ؟

رحماك يانفس . فقد أبنت لى الجمال وأخفيتهُ . أنت والجمال فى
لنور وأنا والجهل فى ظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو فى الحياة .

أنت تسيرين نحو الأبدية بسرعة وهذا الجسد يخطو نحو الفتاة ببطء ، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يا نفس منتهى التعاسة .

أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط إلى تحت بجاذبية الأرض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهتك ، وهذه هى البغضاء .

أنت يا نفس غنية بحكمتك وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا أقصى الشقاء .

أنت تذهبين فى سكونة الليل نحو الحبيب وتمتعين منه بضمه وعناق ، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماك يا نفس رحماك .

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعاً على شمال ، مستظهِراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادى قاديشا^(١) ، جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الأرياح خطوطاً تمحوها الأرياح وتتلاعب بها العواصف ، مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة .
اختبأ الإنسان في منازلها ، والحيوان في مرابضه ، وسكنت حركة كل ذى نسمة حية ، ولم يبق غير برد قارس ، وزمهرير هائج ، وليل أسود مخيف ، وموت قوى مريع .

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء ، وبقرها وحيداً ينظر تارة إلى أشعة النار وطوراً إلى وجه أمه الهادئ . في تلك الساعة عصفت الأرياح بشدة وهزت أركان ذلك البيت ، فذعر الصبي واقترب من أمه محتتماً بحنونها من غضب العناصر ، فضمته إلى صدرها وقبعته ، ثم أجلسته على ركبتها وقالت : « لا تجزع يا ابني

(١) وادى قاديشا أى وادى القديسين ، سمي بهذا الاسم إذ كان ملجأ الزاهدين ومأوى النساك الهاربين من شقاء العالم وضجة الاجتماع ، حيث كانوا يجدون الكهوف المخروقة بيد الطبيعة ، والسكنية المألوفة تلك الأماكن ، وهو واد عميق كثيراً ما ترغب الشمس في أن تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمقه واتساعه . وإذ كأنه جرح بليغ في صدر لبنان خرقة ناب الدهر غدراً بعد أن كان صديقاً صدوقاً .

فالتبيعة تريد أن تعظ الإنسان مظهره عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه . لاتخف يا ولدى فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والأرياح العاصفة روح قدوس كلى عالم بما تحتاجه الحقول والآكام . من وراء كل شيء كوة ناظرة إلى حقارة الإنسان بعين الشفقة والرحمة . لاتجزع يا فلدة كبدى فالتبيعة التى ابتسمت فى الربيع وضحكت فى الصيف وتأوهت فى الخريف تريد أن تبكىنى الآن ، ومن دموعها الباردة تستقى الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى . ثم يا ولدى ففى الغد تستيقظ وترى السماء صافية الأديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلماً ترتدى النفس ثوب الطهر بعد مصارعة الموت . ثم يا وحيدى فوالدك ناظر الآن إلينا من مسارح الأبدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر النفوس الخالدة . ثم يا حبيبى فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف نجنى الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان ، كذا يا ابنى لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد أليم ، وصبر مر وقنوط متلف . ثم يا صغيرى فسوف تأتى الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل ويطش البرد » .

ونظر الصبى إلى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال : « لقد أثقل أجفانى الكرى يا أماه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة . فعانقته الأم الحنونة ونظرت من وراء الدموع . إلى وجهه الملائكى ثم قالت : « قل معى يا ولدى أشفق يا رب على الفقراء وارحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسمهم العارية بأيديك . انظر إلى اليتامى النائمين فى الأكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم . اسمع يا رب نداء الأرامل القائمت فى الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد . امدد يدك يا رب إلى قلب الغنى

وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يا رب بالجائعين
الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم ، واهد الغرباء إلى المأوى
الدافئة وارحم غربتهم . انظر يا رب إلى العصافير الصغيرة ، واحفظ
يمينك الأشجار الخائفة من قساوة الرياح .. ليكن هذا يا رب » .
ولما عانق الكرى نفس الصبي مددته والذته على فراشه وقبلت جبهته
بشفتين مرتجفتين ، ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف
رداء .

الدهر والأمة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كأسلاك فضية ،
جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعى الأعشاب اليابسة بين
الأشواك الغضة — صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ مآتى الآتى على
صفحات الجو ، وقد نمت الدمع عينها مثلما ينمق الندى أزهار الترجس ،
وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهدا .

ولما جاء المساء وأخذت تلك الرواى تلتف برداء الظل ، وقف أمام
الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه ، حاملا يمينه
منجلا سنيماً وقال بصوت يحاكى هدير الأمواج : « سلام على
سوريا » .

فوقفت الفتاة مذعورة ، وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن
قائلة : « ماذا تبتغى الآن منى أيها الدهر ؟ » .

ثم أومأت نحو أغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الأودية .
هذه فضلة مظامعك فهل جئت لتستزيد منها ؟ » .

هذه هى المسارح التى أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت
الخصب والرزق . كانت نعاजी ترتعى رؤوس الأزهار وتدر لبناً ذكياً ،
فها هى الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة
الفناء .

اتق الله يادهر وانصرف عني ، فقد كرهتني الحياة ذكرى مظالمك ،
وحببت إلي الموت قساوة منجلتك .

اتركني ووحدني أرشف الدمع شرابا ، وأنتشق الحزن نسيما ،
واذهب يادهر إلى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ، ودعني
أنتحب في مآتم أنت عاقتها .

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله على أثوابه ، وقال :
« ما أخذت منك يا سوريا إلا بعض عطايي ، وما كنت ناهبا قط
بل مستعيرا أرد ، ووفيا أرجع . واعلمي أن لأخواتك الأُم نصيبا
باستخدام مجد كان عبدك ، وحقا بلبس رداء كان لك . أنا والعدل
أقنومان لذات واحدة ، فلا يجعل لي سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك ،
ولست قادرا على تسويتكن في محبتي لأن المحبة لا تنقسم إلا على السواء .
لك يا سوريا أسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن قطيع
يشابه قطيعك ، ومرعى نظير مرعاك . إن ماتدعيه انحطاطا يا سوريا
أدعوه نوما واجبا يعقبه النشاط والعمل . فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلا
بالموت ، والمحبة لا تصبح عظيمة إلا بعد الفراق » .

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلا : « هذي يدي يا ابنة
الأنبياء » : فأخذت يده وهي تنظر إليه من وراء الدمع وقالت :
« الوداع أيها الدهر الوداع » فأجابها . « إلى اللقاء يا سوريا إلى
اللقاء » .

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفي البرق ، فنادت الصبية أغنامها ومشت
مرددة : « هل من لقاء يا ترى هل من لقاء ؟ » .

أمام عرش الجمال

هربت من الاجتماع وهمت في ذاك الوادى الواسع متبعاً مجارى
الجدول تارة ومصغياً إلى محاورات العصفير طوراً ، حتى بلغت مكاناً
حمته الأغصان من نظرات الشمس فجلست أسامر وحدتى وأناجى
نفسى .. نفس ظامئة رأت كل ما يرى سرايا ، وكل ما لا يرى سرايا .
ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادة إلى فضاء ، التفت فإذا بفتاة واقفة
على مقربة منى . حورية لم تتخذ من الحل والحلل سوى غصن من الكرم
تستر به بعض قامتها ، ولا كليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبى .. إذ
علمت من نظراتى أننى صرت مسلوب الفجأة والحيرة ، قالت : « أنا
ابنة الأحراج فلا تجزع » . قلت وقد زدت حلاوة صوتها بعض رمقى :
« وهل يقطن من كان مثلك بيرة سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولى لى
بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟ » فقالت وقد جلست على الأعشاب :
« أنا رمز الطبيعة . أنا العذراء التى عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل
فى بعلبك وافقا وجبيل . قلت « تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادى
ساوت أديم الأرض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة
فى بطون الكتب » قالت « بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون
بموتهم . وبعضهم يحيون بالوهية أزلية أبدية . أما ألوهيتى فهى مستمدة
من جمال تراه كيفما حولت عينيك ... جمال هو الطبيعة بأسرها .. جمال

كان بدء سعادة الراعى بين الرى والقروى بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاة إلى عرش حقيقة لا تجرح « قلت ودقات قلبي تقول مالا يعرفه اللسان : » إن الجمال قوة مخيفة رهيبة « . فقالت وعلى شفيتها ابتسامة الأزهار وفي نظرها أسرار الحياة : « أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهى منبع الأمن . تخافون الطبيعة وهى مرقد الراحة ، وتخافون إله الآلهة وتعزون إليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً » .

وبعد سكتة مازجتها الأحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته » .

قالت : « هو ما كان بنفسك جاذب إليه .. هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ .. هو ما شعرت عند ملقاه بأياد ممدودة من أعماقك لضمه إلى أعماقك .. هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة .. هو ألفة بين الحزن والفرح .. هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً .. هو قوة تبدع في قدس أقداس ذاتك وتنتهى في ما وراء تخيلاتك .. »

واقتربت ابنة الأجراس منى ووضعت يدها المعطرة على عيني ، ولما رفعتها رأيتني وحيداً في ذلك الوادى ، فرجعت ونفسي مرددة : « إن الجمال هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ » .

زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ، ونظرت إلى نظرة الأم الحنون ومسحت دموعي وقالت : « سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك أمامي فأملأه نوراً . سلني فأريك سبيل الحق » فقلت : « من أنا أيتها الحكمة ، وكيف سرت إلى هذا المكان الخيف ؟ .. ما هذه الأمانى العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الأفكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المتشور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة المفرحة ، المعانقة روحى ، المساورة قلبى ؟ ما هذه العيون المحدقة بى ، الناظرة أعماق المنصرفه عن آلامى ؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامى ، المترنمة بصغرى ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بأُميالى ، المستهزى بعواطفى ، الناسى أعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطاء الغد ؟ ما هذا العالم السائرى إلى حيث لا أدرى ، الواقف معى موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض الفاغرة فاها لابتلاع الأجسام المفرحة صدرها لسكنى المطاعم ؟ ما هذا الإنسان الراضى بمحبة السعادة ودون وصاها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشارى دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والأحلام تناديه ، السائر مع سواق الجهالة إلى خليج الظلمة ؟ ما هذه الأشياء أيتها الحكمة ؟ ... !

فقلت : « أنت تريد أيها البشرى أن ترى هذا العالم بعين إله ، وتريد أن تفقه مكونات العالم الآتى بفكرة بشرية وهذا منتهى الحماسة . اذهب إلى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور ، والنسر ينقض على الفريسة . ادخل إلى بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً بأشعة النار ، والوالدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ، ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها . كل ما تراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والزسوم الغريبة والأفكار الجميلة هى أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذى تحوكه هو الواصل بينك وبين إخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هى البذور التى ألقتها الماضى فى حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل ... »

إن هذا الشباب المتلاعب بأميالك هو هو الفاتح باب قلبك لدخول النور . إن هذه الأرض الفاغرة فاهاهى التى تخلص نفسك من عبودية جسدك . إن هذا العالم السائر بك هو قلبك ، فقلبك هو كل ما تظنه عالماً . إن هذا الإنسان الذى تراه جاهلاً وصغيراً هو الذى جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن ، والمعرفة من الظلمة .. »

ووضعت الحكمة يدها على جبهتى الملتبة وقالت :

« سر إلى الأمام ولا تقف قط فالأمام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السيل فهى لا تستطيع إلا الدماء الفاسدة » .

حكاية صديق

١

عرفته فتى ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شببيته ، مستميتاً في إدراك غرض أمياله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق إلى لجة الشهوات . عرفته في تلك القرية صبيّاً شرساً يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته في المدرسة يافعاً بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرس ، عدواً للسكينة . وعرفته في المدينة شاباً يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويذل أمواله في نوادي التهلك ، ويعطى عاقلته إلى ابنة الكرمة .

ولكنني كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمازجها الإشفاق . أحبه لأن منكرااته لم تكن نتائج نفس صغيرة بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة . النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود إليها مريدة ، وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالاً تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها .. تعميها إلى أمد بعيد في أكثر المواطن . أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له ، لأنني رأيت حمامة ضميره تغالب نشر سيئاته ، فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بخيانتها .

الضمير قاض عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه .
قلت أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، ففي الحكمة أنا والعدل
آونة ، والأمل أخرى فمحبتي له كانت أملى باستظهار نور شمس الوضعية
على ظلمة متاعها العرضية . على أنني كنت جاهلاً أنني وأين تتبدل
الأدران بنقاوة والشراسة بدواعة ، والطيش بحكمة ، والإنسان لا يدري
كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف
تبتسم الأزهار إلا بعد مجيء الصباح .

٢

مرت الآيات آخذة بأعناق الليالي . وأنا أذكر ذلك الفتى بغصات
مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتنهيدات تجرح القلب وتدمى حتى وافاق
بالأمس كتاب منه قال فيه :
— تعال إلي يا صديقي فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر قلبك
لقاؤه ، وتطيب نفسك بمعرفته ..

قلت : ويحيى ! أريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على
شاكلته ، أو لم يكن وحده أمثلة كافية لتعريف آيات الضلال ؟ وهل
يروم الآن تذليل تلك الأمثلة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب
المادة ؟ ثم قلت : « اذهب فالنفس تجنى من العوسج تيناً بحكمتها .
والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته ..

ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفته يقرأ كتاباً

(دعة وابسامة)

شعريا ، فحبيته مستغربا وجود الكتاب بين يديه وقلت : « أين الصديق الجديد ؟ قال هو أنا يا خليل هو أنا » ، ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ، ونظر إليّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح تلك العيون التي طالما تأملتها ولم أر فيها غير العنف والقساوة أصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافا . ثم قال بصوت حسبه صادراً من غيره : « إن ذاك الذى عرفته فى الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته فى الشبية قد مات ، وبموته ولدت أنا . أنا صديقك الجديد فخذ يدي » . أخذت يده فشعرت عند الملاسة أن فى تلك اليد روحاً لطيفاً يسرى مع دماء .. تلك اليد العتيفة قد صارت لينه . تلك الأصابع التى شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت — وليتنى أذكر غرابة ما قلت : « من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلا فقدسك ، أم أنت تمثل أمامى دوراً شعرياً » ؟ قال : « أى يا صديقى إن الروح قد حل علىّ ، وقدسنى الحب العظيم قد جعل قلبى مذبحاً طاهراً . هى المرأة يا خليلي .. المرأة التى ظننتها بالأمس ألعوبة الرجل ، قد أنقذتنى من ظلمة الجحيم وفتحت أمامى أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت لى إلى أردن محبتها وعمدتنى . تلك التى احتقرت أختها بغاوتى قد رفعتنى إلى عرش المجد . تلك التى دنست رفيقتها بجهلى قد طهرتنى بعواطفها . تلك التى استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتنى بجماها .. تلك التى أخرجت آدم الأول من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتنى إلى تلك الجنة بمنوها وانقيادى » .

فى تلك الدقيقة نظرت إليه فوجدت المدامع تتلألأ فى عينيه ،

والابتسام يراود شفثيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعته ورجعت مردداً قوله : « تلك التى أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه ، قد أعادتني إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى » .

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان إلى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط إلى آخر ، ونحن لا نرى إلا ماوقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا . يتجلى لنا الجمال على كرسى مجده فنقترب منه ، وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسباً ثوب الوداعة فنخافه ونحتبئ في مغائر الظلمة ، أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور . والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلاً وهو ألطف من أنفاس الأزهار وأرق من نسيمات لبنان . تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الأشهاد فنحسبها بطلاً ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية إلى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مرسحاً للابتذال ومجالاً لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجئ إلى المدينة ، وهناك نتكاثر على بعضنا بعضاً كقطع رأى ذئبا خاطفاً . تزورنا الحقيقة منقاداً بابتسامة طفل أو قيلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشرى يستتجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من

— ٥٢ —

الجهاد لا نعى ولا نفهم ، وإذا ما سمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا
هذا ذو جنة وتبرأنا منه .

هكذا تمر الليالي ونحن غافلون، وتصافحنا الأيام ونحن خائفون من
الليالي والأيام . نقترّب من التراب والآلهة تنتمى إلينا ، ونمر على خبز
الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا . فما أحب الحياة إلينا وما أبعدنا عن
الحياة ..

يا خليلي الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء ، وريت في أحضان الذل ، وشبيت في
منازل الاستبداد ، أنت الذى تأكل خبزك اليابس بالتهند . وتشرب ماءك
العكر ممزوجا بالدموع والعبرات .

يأياها الجندى المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته
وصغارها ومحبيه ، ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه
الواجب .

ويأياها الشاعر الذى يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ،
ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق .

ويأياها السجين المطروح في الظلمة من أجل ذنب صغير جسّمه غي
الذين يقابلون الشر بالشر ، واستغربته عاقلة الألى يرومون الإصلاح
بواسطة الفساد .

وأنتِ أيها المسكينة التى وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك
وتغلب على فقرك بالذهب ، فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين
مخالب الذل والتعاسة .

أنتم يا أحبائى الضعفاء شهداء شرائع الإنسان . أنتم تعساء وتعاستكم
نتيجة بغى القوى وجور الحاكم وظلم الغنى وأنانية عبد الشهوات .
لاتقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة من وراء الغيوم ،

— ٥٤ —

من وراء الأثير ، من وراء كل شيء .. قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل
حنو وكل محبة .

أنتم مثل أزهار نبتت في الظل ، سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل
بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة .

أنتم نظير أشجار عاريه مثقلة بثلوج الشتاء ، سوف يأتي الربيع
ويكسوكم أوراقا خضراء غضة .

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا أقبلكم يا إخوتي وأحتقر مضطهديكم .

مناحة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق ، جلست في وسط الحقل أناجى الطبيعة . في تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالاً بينما كان الإنسان مستتراً طي لحف الكرى تتنابه الأحلام تارة واليقظة أخرى ، كنت متوسداً الأعشاب أستفسر كل ما أرى عن حقيقة الجمال ، واستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فَصَلْتُ تصوراتي بيني وبين البشريات ، وأراحت تخيلاقي برقع المادة عن ذاتي المعنوية ، شعرت بنور روحى يقربنى من الطبيعة ويبين لى غوامض أسرارها ويفهمنى لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مر النسيم بين الأغصان متهداً تنهد يتم يائس ، فسألت مستفهماً : « لماذا تنهد يا أيها النسيم اللطيف ؟ » فأجاب . لأننى ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . إلى المدينة حيث تتعلق بأذيال النقية مكروبات الأمراض ، وتشبث بى أنفاس البشر السامة . من أجل ذلك ترائى حزينا .

ثم التفت نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : « لماذا البكاء يا أيها الأزهار الجميلة ؟ » فرفعت واحدة منهن رأسها اللطيف وقالت : « نبكى لأن الإنسان سوف يأتى ويقطع أعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، وإذا ما جاء المساء

وذبلنا رمى بنا إلى الأقدار . كيف لا نبكى ويد الإنسان القاسية سوف
تفصلنا عن وطننا الحقل .

وبعد هنية سمعت الجدول ينوح كالشكلى فسألته : « لماذا تنوح يا أيها
الجدول العذب ؟ فأجابني : « لأننى سائر كرهاً إلى المدينة ، حيث
الإنسان يحترقنى ويستعيز عنى بعصير الكرمه ويستخدمنى لحمل
أدراثة . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتى وزراً ، وطهارتى
قذراً .

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغنى نشيدا محزناً يحاكى الندب ،
فسألتها : « لماذا تندين يأتها الطيور الجميلة » فاقترب منى عصفور
ووقف على طرف الفصن وقال : « سوف يأتى ابن آدم حاملاً آلة
جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودع بعضنا بعضاً لأننا
لا ندرى من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا
أيها سرنا » .

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الأشجار بأكاليل
ذهبية ، وأنا أسأل ذاتى لماذا يهدم الإنسان ما تبنيه الطبيعة .

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشت أنوار الكهرباء في صرح الغنى ، فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين . صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة ، وتقاطر الأشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ، ويمجرون أذيال العزة والفخر .

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الأعزاء .
وأصبحت تلك المقصورة روضة تمر بها نسيمات الموسيقى فتتايل أزهارها تهباً وإعجاباً .

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من الفاكهة وطاب من الألوان ، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتى ألبتهم .

جاء الصباح وفرق شمل أولئك الأشراف الأغنياء بعد أن اضناهم السهر ، وسرقت عاقلتهم الخمرة ، وأتعبهم الرقص ، وأذبلهم القصف ، وذهب كل إلى فراشه الناعم .

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدى أثواب الشغل أمام باب
كوخ حقير وقرع ، ففتح له ودخل وحى مبتسما ، ثم جلس بين صبية
يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً
حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة
ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة إلى كبد الظلمة .
وبعد مرور الهزيع الأول من الليل قاموا بسكنية كلية ، واستسلموا
لملك الرقاد .

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلاً
من الخبز والحليب ، ثم قبلهم وحمل على كتفه معولاً ضخماً وذهب إلى
الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء
الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة .
طلعت الشمس من وراء الجبل ، وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك
الحارث ، وأولئك الأغنياء ما يرحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل في
صروحهم الشاهقة .
هذه مأساة الإنسان المستتبة على مرسح الدهر ، وقد كثر المتفرجون
المستحسنون وقل من تأمل وعقل .

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة ، وقال : « أبشركم وأهنئ البلاد . فالأميرة قد وضعت غلاما يحبى شرف عائلتي المجيدة ، ويكون لكم فخراً وملاذاً وورثاً لما أبقتة أجدادى العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار منافعاً بسليل المعالى » .

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج الفرح ، متأهلة بمن سوف يرى على مهد الترف ، ويشب على منصة الإعزاز ، ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العباد . ضابطاً بقوته أئنة الضعفاء ، حرياً باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم . من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوى ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد ، والملائكة تبكى على صغرهم ، كان في بيت فقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملهب طفلاً ملتقاً بأقمطة بالية .

صبية كتبت لها الأيام فقراً ، والفقر شقاء فأهملت من بنى الإنسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوى ، وحيدة بعثت إليها الآلهة في تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع ، وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ، ونظرت في عينيها اللامعتين وبكت بكاء مرأ كأنها تريد أن تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الأرواح ، أطمعاً بمشاطرتي الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفى ؟ لماذا تركت الملائكة والقضاء الواسع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندي يا وحيدى إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعى العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت فى أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغبوطه ، وأنت يا ولدى ليس لك إلا تنهداتى وضعفى .

حيثئذ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً ، ورفعت عينيها نحو العلأ وصرخت « ارفق بنا يا رب » .

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر ، دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقيق ، وانسكبت على جسدين هامدين ..

شعراء المهجر

لو تخيل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير
مقياساً لفضلات القرائح ، وخبوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار ، لنثر
تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتبناه سيصبح مورداً لأفكار
عميقة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا ، لهرقا المحابر في محاجر
النسيان ، وحطما الأقلام بأيدي الإهمال .

ولو درت أرواح هو ميروس وفرجيل وأعمى المعرفة وملتون أن الشعر
المتجسم من النفس المشابهة الله ، سيحط رحاله في منازل الأغنياء ،
لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز علي أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة
الأغنياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين ، ولست منفرداً في
وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلاً
بالجاموس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيى القلب أو تنهده
تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب
ومشرها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح
كذاب نبذه أوقى .

فيا إلهة الشعر — يا إادانو — اغتفرى ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة
كلامهم ، ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخیلات أفكارهم .
ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالى عالم الخلود ، ليس لنا عذر
لتقدمنا من مذابح زبتموها بلآلىء أفكاركم وجواهر أنفسكم ، سوى أن
عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقله الحديد وضجيج المعامل ، فجاء شعرنا
ثقيلاً ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار .
وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون ساعحونا ، فنحن من العالم الجديد نركض
وراء الماديات ، فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدى ولا تدرى بها
النفوس .

تحت الشمس

« رأيت كل الأعمال التي عملت تحت
الشمس ، فإذا الكل باطل وقبض الريح »
(الجامعة)

ياروح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يامن خلعت ثوب
المادة الذى نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من
الضعف والقنوط ، فولد ضعفاً وقنوطاً فى سرى الأجسام .
أنت تعلمين الآن أن فى هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن أنى
للبشر تلك المعرفة التى لا تدرك إلا بعد انعتاق النفس من ربة التراب ؟ .
أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبض الريح ، وأن ليس تحت
الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ،
ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها ، وما برحنا نظنها
حكمة باهرة وهى — أنت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفى
الأمل .

أنت تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ، ونحن لا
نرى جمالاً إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .
أنت تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشرى ، وعماقلتنا
القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود إلا اليسر والفرج .
أنت تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن

— ٦٤ —

ما برحنا نردد كلامك الذى يدل على أن الإنسان ليس إلا ألعوبة فى يد
القوة غير المعروفة .

أنت ندمت على بث روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ، ويميت
الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك .
يا روح سليمان الساكنة فى عالم الخلود ، أوحى إلى محبى الحكمة ألا
يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير
مقصود .

نظرة إلى الآتى

من وراء جدران الحاضر سمعت تسايح الإنسانية ؟ سمعت أصوات
الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال .. أجراس
سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس .. القلب
البشرى .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة
نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح .. صباح الحقيقة .

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من آثارها غير طلل بال ، تخبر
الرجال باندحار الظلمة أمام النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف ، وقد جلس
الصبيان حولهم يسمعون أخبار اليوم .

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في الناي ،
والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين
والفل .

رأيت الكهول يحصدون الزرع ، والنساء يحملن الأغمار وترنمن
بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرة .

(دمة وإتسامة)

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة بإكليل من الزنبق ،
ومنتقة من أوراق الأشجار الغضة .

رأيت الألفة مستحكمة بين الإنسان والمخلوقات ، فجماعات الطير
والفراش تقترب منه آمنة ، وسرب الغزلان تنثنى نحو الغدير واثقة .
نظرت فلم أر فقيراً ولا ما يزيد عن الكفاف ، بل الفيت الإخاء
والمساواة ، ولم أر طبيباً إذ كل غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ،
ولم أر كاهناً لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم ، ولم أر محامياً لأن
الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الألفة والوئام .

رأيت الإنسان قد علم أنه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن
الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل
الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه
النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الأزهار ، وتعرف معنى
أغاني الشحارير والبلابل .

من وراء جدران الحاضر .. على مسرح الأجيال الآتية رأيت الجمال
عروساً والنفس عروسة ، والحياة كلها ليلة القدر .

ملكة الجمال

بلغت خرائب تدمر وقد أنهكنى المسير ، فاستقبلت على أعشاب
نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنها أشلاء
حرب هائلة . وصرت أتأمل بعظام أجلاها وهى مهدومة منقوضة عن
صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنازلة بارتداء ثوب السكينة ،
شعرت بأن الأثير المحيط بى سيالا يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر
فعلا ، فصرت أجرعه محكوما وأحس بأيد خفيفة تتساهم عاقلتى
وتثقف جسمى وتحل نفسى من سلاسلها ، ثم مادت الأرض واهتز
الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتنى فى رياض لم يتخيلها
بشر قط ، مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين
حولى ولا تلمس أرجلهن الأعشاب ، وينشدن تسيحة منسوجة من
أحلام الحب ، ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . لما
وصلت إلى منفرج قام فى وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح
تنسكب منها أنوار بلون قوس القزح ، وقفت العذارى على اليمين واليسار
ورفعن أصواتهن عن ذى قبل ، ونظرن إلى جهة تبعث منها رائحة المر
واللبان ، فإذا بملیكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو
العرش واستوت عليه ، فهبط إذ ذاك شرب حمام كالثلج يياضاً واستقر

حول أقدامها بشكل هلال .

صار هذا والعذارى يغنين مجد الملكية سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تره عين إنسان ، وأسمع ما لم تعه أذن بشرى .

حينئذ أشارت الملكية بيدها فسكنت كل حركة ، ثم قالت وصوتها يهز نفسى مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عود ، ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحري كأن للأشياء آذانا وأفئدة : « دعوتك أيها الإنسى وأنا ربة مسارح الخيال ، وحبوتك المثلول أمامى وأنا مليكة غابة الأحلام ، فاسمع وصاياى وناد بها أمام البشر . قل إن مدينة الخيال عرس يخفر بابه ماردا جبار فلن يدخله إلا من لبس ثياب العرس . قل هى جنة يحرسها أملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب . هى حقل تصورات أنهاره طبيعية كالخمر ، وأطياره تسبح كالملائكة ، وأزاهره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الأحلام . خبر الإنس بأنى وهبتهم كأساً يفعمه السرور فهرقوه بمجهلهم ، فجاء ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفاً وسكروا . قل لمن يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحى ، ونظرت أعينهم عرسى ، فأشعياً نظم الحكمة عقوداً بأسلاك محبتى ، ويوحنا روى رؤياه بلسانى ، ولم يسلك دانتى مراتع الأرواح بغير أدلتى ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكى أعمال الآلهة . قل إن للفكرة وطنا ، أسمى من عالم المراتبات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وأن للتخيلات رسوماً كائنة فى سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما

سيكون بعد انعقادها من الحياة الدنيا .

وجذبني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية ، وقبلت شفتي الملتهبتين وقالت : « قل ومن لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبد الأيام » .

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤيا . ثم مادت الأرض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتي هذه الكلمات : « من لا يصرف الأيام على مسرح الأحلام كان عبد الأيام » .

يالائمي

دعني يالائمي ووحدي . أستحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ، ويوثق قلبك بخنو الأم ، ويربط فؤادك بعواطف الابن ، أن تتركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر إلى الغد ، فالغد يقضى على بما يشاء . محضتني النصيح والنصح طيف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ، ويقودها إلى حيث الحياة جامدة كالتراب .

لى قلب صغير أريد أن أخرجه من ظلمة صدرى وأحمله على كتفى متفحصاً أعماقه ، ومستحكياً أسرارهِ ، فلا تترصده يالائمي بنبال مذهبك مسبباً خوفه واختفائه ضمن قفص الضلوع ، قبل أن يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقده الآلهة عندما ابتدعته من الجمال

والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل ، وتصاعدت أرواح
الآس والمنثور ، وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان
البيضاء ، فلا تعتقني يالائمي ولا تخفني بأسد الغاب ، وصل الوادى لأن
نفسى لا تعرف الجزع ، ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .

دعنى يالائمي ولا تعظنى ، لأن المصائب فتحت بصيرتى ، والدموع
جلت بصرى ، والحزن علمنى لغة القلوب .

اعتزل ذكر المحرمات ، فلى من ضميرى محكمة تقضى بالعدل على ،
وتقبنى العقاب إن كنت ذا برارة ، وتحرمنى الثواب إن كنت من المجرمين .
ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامه ، وسارت
الشبيبة نافخة أبواق الفرحة ، فلا تردعنى يالائمي ، بل دعنى أسير ،
فالطريق مفروشة بالورد والرياحين ، والهواء قد عطرتة مجامر المسك .
اعتقنى من حكاية المال وقصص المجد ، لأن نفسى غنية باكتفائها
ومشغولة بمجد الآلهة .

اعتقنى من مآتى السياسة وأخبار السلطة ، لأن الأرض كلها وطنى ،
وجميع البشر مواطنى .

مناجاة

اين أنت الآن يا جميلتي ؟ أفي تلك اللجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال ثدى أمها . أم في خلدك حيث أقمت للطهر مذبحاً وقفت عليه روحى وحشاشتى ، أم بين كتبك تستريدين من حكمة البشر وأنت غنية بحكمة الآلهة ؟ .

أين أنت يارقيقة نفسى ؟ أفي الهيكل تصلين من أجلى ، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع إعجابك وأحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك ، وتملأين أياديهم بل حسنانك ؟ .

أنت فى كل مكان لأنك من روح الله . وفى كل زمان لأنك أقوى من الدهر . هل تذكرين ليالى جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة ، وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح ، وتذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهى مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ، هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابك محبوبة بأصابعى احتباك ضفائرك ، وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتفى منا بنا .. ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتنى ثم قبلتنى قبله مريمية ، علمت منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان .. قبله كانت توطئة لتهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه « الله » فى الطين فصار إنساناً . تلك

تنهيدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا ، وهناك ستبقى حتى
نجتمع بها إلى الأبد . ثم قبلتنى وقبلتنى وقبلتنى ، وقلت والدمع يساعذك
» إن للأجسام أعراضاً مجهولة فهي تفترق لشؤون عالمية وتتباعده . لما رب
دنيوية ، أما الأرواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت
ويسير بها إلى الله . اذهب يا حبيبى ، لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهي
حسنة تسقى مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة ، أما أنا فلى من
حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك » .

أين أنت الآن ياريفقتى ؟ هل أنت ساهرة في سكينة الليل نسيماً
أحمله دقات قلبى وخفايا جوارحى كلما هب نوحك ؟ وأنت ناظرة رسم
فناك ؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ، فالحزن قد ألقى خياله على
جبهة كانت بالأمس متفرحة بقربك ، والنواح أذبل أجفاننا كانت
مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك .

أين أنت يا حبيبتى ؟ هل أنت سامعة من وراء البحار ندائى
وانتحائى ، وناظرة ضعفى ومذلتى ، وعالمة بصبرى وتجلدى ؟ أوليست
في الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضرة متوجع ؟ أو لم تكن بين النفوس أسلاك
خفية تحمل شكوى محب دنف ؟ .

أين أنت يا حياى ولقد احتضنتنى الظلمة وغلبنى الأسى . ابتمسى
في الهواء فأنتعش : تنفسى في الأثير فأحى .

أين أنت يا حبيبتى ، أين أنت ؟ .

آه ما أعظم الحب ، وما أصغرنى !

المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً .. فتى قوى الجسم أضعفه
الجوع فجلس في منتصف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولاً مستغيثاً
بالمحسنين ، مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه .

خيم الليل وقد ييست شفتاه وكلّ لسانه ولم تزل يده فارغة مثل
جوفه ، فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى
بكاء مرأ ، ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه :
« يا رب قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملاً فطردت لثرثاءة أثواني .
وطرقت باب المدرسة فمنعت لفراغ يدي ، ورمت الاستخدام ولو
بكفاف يومى فأبعدت لسوء طالعى ، وأخيراً سعت متسولاً فرآنى
عبادك يا رب وقالوا هذا قوى نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التواني
والكسل . قد ولدتنى أمى بإرادتك يا رب وأنا كائن الآن بكيانك ،
فلماذا يمنع الناس الخبز عنى وأنا طالب باسمك ؟ . فى تلك الدقيقة تغيرت
سحنة الرجل اليائس ، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ، ثم اقتضب
من الأغصان اليابسة نبوتاً ضخماً وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلاً :
« طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة
ساعدى . وسألت الخبز باسم المحبة فلم يسمعنى الإنسان ، فسأطلبه
باسم الشر وأستزيد منه » .

مرت الأعوام والشباب يقطع الأعناق من أجل الحصول على النقود ،
ويهدم هياكل الأرواح إن تصدت لمطامعه ، فنمت ثروته وعم بطشه
وصار محبوباً من لصوص القوم وخيفاً لعقلائهم ، ثم انتدبه الأمير وكيلا
عنه في تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثليهم .
كذا يتدع الإنسان من المسكين سفاحا باستمساكه ، ومن ابن
السلام قاتلا بقساوته .

الرفيقة

أول نظرة ..

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الأولى التي
تنير خلايا النفس . هي أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب
البشرى . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أجبار الأيام الغابرة ،
وتكشف لبصرها أعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا
العالم ، وتتيح سر الخلود في العالم الآتى . هي نواة تطرحها عشتروت (١)
من العلاء ، فتلقها العيون في حقل القلب فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها
النفس . أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذى يرف على وجه القمر
ومنه انبثقت السماء والأرض . أول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول
الله « كن »

عشتروت إلهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان ، وهى التى يدعوها
اليونان أفروديت والرومان فينوس

أول قيلة ..

هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب ، هى الحديدين شك يرادو القلب فيحزنه ويقين يفهمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوى . هى عروة توثق غرابة الماضى ببهاء الآتى وتجمع بين سكينه الشواعر وأغانيتها . هى كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكا ، والوفاء تاجاً . هى ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهدا مستطيلا لذيداً وأنة خفية عذبة ، هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والأحلام . هى ضم زهرة الشقيق إلى زهرة الجلنار ومزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث ، وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقته إلهة الحب فى حقل القلب البشرى ، فالقيلة الأولى تحاكي أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة .

القران

ههنا بيتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة وينشئ من معانى العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالى . ههنا يزيح الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ، ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف يبغيضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي لتوليد شراب يرتقلى^(١)

(١) اللون البرتقالى يتولد كيمائياً من الأحمر والأصفر .

يحاكى لون الشفق عند مجئ الفجر . هو تنافر روحين من التنافر ، واتحاد
نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة ، أولها نظرة وآخرها
اللانهاية . هو انهمال غيث نقى من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة
لاستخراج قوى حقول مباركة . فإذا كانت النظرة الأولى من وجه
المحوبة مثل نواة ألقته المحبة في حقل القلب ، والقبلة الأولى من شفيتها
تشابه أول زهرة في غصن الحياة ، فالقران بها يحاكى أول ثمرة من أول
زهرة من أول نواة .

بيت السعادة

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب إلى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدسته النفس وقف حائراً لأنه لم ير هناك ما طالما توهمه . لم يرقوة ولا مالا ، لا ولا سلطة . لم ير غير فتى الجمال ورفيقته ابنة الحبة وطفلتها الحكمة .

وخاطب قلبي ابنة الحبة قائلاً : « أين القناعة أيتها الحبة ، فقد سمعت أنها تشاطركم سكني هذا المكان ؟ » قالت : « ذهبت القناعة تركز في المدينة حيث المطامع ، فنحن لانحتاجها . السعادة لا تبتغي قناعة ، إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان . النفس الخالدة لاتنقع لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية » .

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلاً : « أرني سر المرأة أيها الجمال ، وأنرني لأنك معرفة » . فقال « هي أنت أيها القلب البشري ، وكيفما كنت وكانت . هي أنا وأينما حللت حلت . هي كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد » .

واقترب قلبي من الحكمة ابنة الحبة والجمال وقال : « أعطني حكمة أحملها إلى البشر » فأجابت : « قل هي السعادة تبتدىء في قدس أقداس النفس ولا تأتي من الخارج » .

مدينة الماضي

وقفت في الحياة على سفح جبل الشباب وأومأت إلى الوراء ، فنظرت
 فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها
 الخيالات والأبحرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها .
 قلت : « ما هذه أيتها الحياة ؟ » قالت : « هي مدينة الماضي
 فتأمل ؟ » فتأملت ورأيت . معاهد أعمال جالسة كالجبابرة تحت أجنحة
 النوم . مساجد أقوال تحوم حولها صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة
 الأمل . هياكل أديان أقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن أفكار مرتفعة
 نحو العلو كأنها أيدي المتسولين . شوارع أميال منبسطة انبساط النهر بين
 الرنى . مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقته لصوص الاستعلام ، أبراج
 أقدام بنتها الشجاعة فثلثها المخاوف . صروح أحلام زينتها الليالي وخربتها
 اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران
 الذات . نوادي معارف أنارها العقل فأظلمها الجهل . حانات محبة سكر
 بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسح أعجار مثلت عليها الحياة روايتها ثم
 جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قرية .. منظورة محجوبة .
 ومشيت أمامي الحياة وقالت « اتبعني فقد طال بنا الوقوف » قلت :
 « إلى اين أيتها الحياة » قالت : « إلى مدينة المستقبل » . قلت : « رفقا

فقد أنهكنى المسير وكلمت أقدامى الصخور وهدت قواى العقبات «
قالت : « سر ! الوقوف جبانة ، والنظر إلى مدينة الماضى جهالة » .

اللقاء

عندما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم ، تصاعدت من
وادی النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة وجلست على عرش من
الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من أشعة القمر . فمر من أمامها
جوق أرواح سابحة فى الفضاء صارخة : « قدوس قدوس قدوس ! ابنة
مصر مجدها ملء كل الأرض » .

وتصاعد من أعالى قم ميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفاً
بأيادى الساروفيم ، وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح
ومرت من أمامها هاتفة : « قدوس قدوس قدوس ! فتى لبنان مجده ملء
كل الدهور » . .

لما أخذ الحب يد حبيبته ونظر إلى عينيها ، حملت الأرواح والأمواج
هذه المناجاة إلى جميع الأقطار :

- « ما أكمل بهاءك يا ابنة إيزيس ، وما أعظم حبي لك » .
- « ما أجملك بين الفتیان يا ابن عشتروت ، وما أكثر شوقى إليك » .
- « محبتى نظير أهرامك ، فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتى » .
- « محبتى تحاكى أرزك ، فلن تغلبها العناصر يا حبيبتى » .
- « حکماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حکمتك ،

ويستفسروا رموزك يا حبيبتى .
« عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك
وسحر معانيك يا حبيبتى .
« إن راحتك منبت خيرات غزيرة ، تملأ الأهراء يا حبيبتى .
« إن ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة
يا حبيبتى .
« قصور النيل وهياكله تذيب مجدك ، وأبو الهول يحدث بعظمتك
يا حبيبتى .
« الأرز على صدرك وسام شرف أثيل ، والأبراج حولك تروى
بطشك واقتدارك يا حبيبتى .
« آه ما أميلح محبتك ، وما أحلى الأمل المناط بارتقائك يا حبيبتى .
« آه ما أكرمك خليلاً ، وأوفاك خليلاً ، وما أجمل هداياك وأنفس
عطاياك . بعثت إلى بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أتخفتنى
بالفارس فغلب ضعف قومى وحبوتنى (بالأدب) فأنهضهم
وبالنجيب فأثملهم .. » .
« بعثت إليك بالبدوز فصيرتها أزهاراً ، وبالأنصاب فجعلتها
أشجاراً . فأنت حقل بكر يحبى الورد والسوسن ، ويرفع السرو
والأرز .. » .
أرى بعينيك حزناً يا حبيبتى — أتخزنى وأنت بقرى ؟ » .
« لى أبناء رحلوا إلى ماوراء البحار ، وخلفونى حليف بكاء وأليف
شوق » .

« ليت لى مايشابه حزنك ، وتنصرف عنى مخاوفى يا حبيبتى .
 « أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الأم ؟ » .
 « أخاف من طاغية تقترب منى بحلاوة روغها ، وتمتلك أعنتى بقوة
 ساعديها » .
 « إن حياة الأم يا حبيبتى مثل حياة الأفراد . حياة يؤاخيها الأمل ،
 ويقارنها الخوف ، وتحف بها الأمانى ، ويرمقها القنوط » .
 وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عطراً ، فمرت
 أجواق الأرواح منبشدة : قدوس قدوس قدوس ! المحبة مجدها ملء
 السماء والأرض .

مخبات الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جناح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت ، جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها ، مثلما تنكس زنبقة ذابلة على أوراقها ، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحرية .

مرت الساعات مرور أشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها . مستأنمة بانفرادها ولوعتها . حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها ، تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها ، وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

أيها الأخت المحبوبة .

عندما يضيق القلب بأسراره وتتفرح الأجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبات الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالخزين يا صديقتي يستعذب الشكوى يجد المحب تعزية بالتشبيب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فأنا أكتب إليك الآن لأنني أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوما بقوة ألوهيته ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعا بمرارة

جوعه غير راحم فاقة أمه وانكسارها .

اسمعى قصتى الموجهة يا أختى وابكى من أجلى ، لأن البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة كالإحسان لا تذهب سدى ، لأنها متصاعدة من أعماق نفس حية شاعرة .. شاء والذى وجمع بالقران بينى وبين رجل شريف غنى شأن كل والد غنى شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر ، وضم الشرف إلى الشرف هربا من ذل الأيام ، فكنت مع عواطفى وأحلامى ضحية على مذبح ذهب أحقره ، وشرف موزوت أكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التى إذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمر من الهاوية ، أنا أعتبر بعل ، لأنه كريم الخلق شريف القلب ، يجهد النفس فى سبيل سعادتي ويذلل المال لرضاي ، لكننى وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوى دقيقة محبة حقيقية مقدسة . تلك المحبة التى تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة . لا تسخرى لى يارفيقتى فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة — هذا القلب الخفوق — هذا الطائر السابح فى فضاء المحبة — هذا الإناء الطافح من خمرة الدهور المعدة لمراشف الأرواح .. هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والمسرة والأجزان ، فلا يقرأه إلا الرفيق الحقيقى ، نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد .. نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وأميال القلب عندما وجدت أن خيول بعل المطهمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوى نظرة واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذى جاء هذه الحياة من أجلى وجئت من أجله ، ذلك الصابر على مضض البلوى وذل

التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بإرادة والدى ، والمسجون بلا إثم في ظلمة العمر .. إياك يا صديقتى محاولة تعزيتى ، لأن لى فى مصائبى معزيا هو إدراكى قوة حبيبى ، ومعرفتى شرف شوقى وحسينى ، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب منى يوما فيوما لتقودنى إلى حيث أنتظر رفيق نفسى وألتقى به وأعانقه عناقا طويلا مقدساً . ولا تلومنى فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة ، خاضعة لأحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، أكرم بعلى بعاقلتى ، وأعتبره بقلبى ، وأجله بنفسى ، ولا يمكننى أن أهبه كليتى لأن الله أعطاها إلى حبيبى قبل معرفتى حبيبى . شئت السماء لحكمة خفية أن أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره ، فأنا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن إذا ما انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسى الجميل ونظرت إلى الماضى — وذاك الماضى هو هذا الآن .. نظرة الربيع إلى الشتاء ، وتأملت فى حياى هذه مثلما يتأمل فى العقبات من بلغ قمة الجبل .

هنا . وقتت تلك الصبية عن الكتابة . وحجبت وجهها يديها . وبكت بكاء مرأ كأن نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدس أسرارها إلى الورق . فأعطتها إلى دموع سخينة تجف بسرعة وتمتزج بأثير الطيف وموطن أنفاس المحبين وأرواح الأزهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت .. « هل تذكرين يا صديقتى ذلك الفتى ؟ هل تذكرين تلك الأشعة المنبعثة من عينيه ، وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكى صدى الوادى البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل فى الأشياء بنظرات

طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة . ثم يحنى رأسه ويتنهد كأنه يخاف أن
يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ، وهل تذكرين أحلامه وعقائده !
هل تذكرين كل هذا الأشياء في فتى يحسبه البشر من البشر ، ويحتقره
والدى لأنه أسمى من المطامع الترابية وأشرف من أن يرث الشرف عن
الجدود ؟ إى يا أختى أنت تعلمين أننى شهيدة صغائر هذا العالم وضحية
الغباوه وترحمين أختاً ساهرة فى سكىنة الليل الخفيف لتكشف لك ستائر
صدرها عن أسرار قلبها . أنت ترحمين لأن الحب قد زار قلبك . .
جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى ، عليها تجد فيه
أحلاماً ألطف من أحلام اليقظة ..

القوة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرحت القلب ،
وابتسمت بشفاه الأزهار فأسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة
الجميلة فأنست الإنسان عذوبة كليماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء
مخيفة نقصت بساعة ما أقامته الأجيال . موت ظلوم قبض بأظافره
المحدودة على الأعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الأرزاق
والأعمار . ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة
هبت من مرابضها وقاتلت الإنسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت
بسرعة ما جمعه بالتأني . زلزال عنيف هبّت به الأرض فتمخضت
متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كل ذلك والنفس الحزينه ناظرة من بعيد تتأمل وتتأمل . تتأمل
بمقدرة الإنسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة وتتأمل مع المصابين الهاربين
من النار والدمار . تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى
وبين دقائق الأثير ، وتتأمل مع الولادات الناثحات والأطفال الجائعين .
تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتأمل مع الذين رقدوا
بالأمس مستأمنين في منازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة
الجميلة بنصبات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ،
والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتأمل مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس

والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلة : إن وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الأرض بمكان البغض والحقد والشر في القلب البشرى تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الإنسان بدمه وأرزاقه .

أوقفتني الذكرى ونكبة هذه الأمة تملأ الأسماع أنه وعويلا ، وصورت أمام عيني كل مامر على مسرح الأيام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الإنسان في كل أدواره يقيم على صدر الأرض البروج والقصور والهيكل ، والأرض ترجعها إلى قلبها . رأيت الأشداء يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يختلفون من الصخور صوراً وأشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاهها وتبتلع بخشونة ما ألفته الأيادي المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والأشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلة دور حسناء مستغنية عن الحللى التى يصيغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى .

على أنني وجدت بين هذه النكبات الخيفة والرزايا الهائلة ، ألوهية الإنسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر ، ومثل

عمود نور منتصب بين خرائب بابل ونيوى وتدمر وبمباى وسان
فرنسيسكو ، ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض ما لها فلا نهاية
لى .

منيتان

فى سكىنة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة ، واستقر
على أعلى معذنة فيها ، وخرق بعينه النيرتين جدران المساكن ، ورأى
الأرواح المحمولة على أجنحة الأحلام ، والأجساد المحكومة بمفاعيل
الكبرى .

ولما توارى القمر وراء الشفق ، وتوشحت المدينة بنقاب الخيال ،
سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوى الغنى فدخل
ولم تصده الحواجز ، ووقف جنب سريره ثم لمس جبينه فاندعر من
غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسست فيه عوامل
الحنى والخوف وقال : ابعده عنى أيها الحلم الخفيف . اذهب أيها الخيال
الشرير . كيف دخلت أيها السارق ، وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب
فأنا رب البيت ، اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إربا .

حينئذ اقترب الموت وبصوت يحاكى الرعد قال : « أنا هو الموت
فانتبه واعتبر ! » فأجاب القوى الموسر : « ماذا تريد منى الآن وماذا
تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالى بعد ! ماذا تطلب من الأقوياء
نظيرى ، اذهب إلى السقماء . اغرب عنى ولا ترنى أظافرك الجارحة

وشعرك المسدول كالأفاعى . رح فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلين
وجسدك البالى « وبعد سكينه مزعجة زاد » لا لأيتها الموت الرؤوف —
لا تحفل بما قلته ؛ فالخوف يوحى ما يحرمه القلب — خذ مكيا لا من ذهبي
أو قبضة من أرواح عبيدى واتركنى وشأنى ... لى ياموت مع الحياة
حساب لم أنه ، ومع الناس مال لم أستوفه ، لى بين أمواج البحر مراكب
لم تصل إلى الساحل ، وفى قلب الأرض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من
هذه الأشياء واتركنى . لى جوار كالصباح جمالا فاختر منهن ما تريد .
اسمع أيتها الموت لى وحيد أحبه وهو عقدة آمالى ، خذه واتركنى . خذ ما
تشاء خذ كل شىء واتركنى » .

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية ، وأخذ حقيقته
وأعطاها للهواء .

سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله
واقترب من سرير عليه فتى فى ربيع العمر ، وبعد أن تأمل فى وجهه
الهادئ لمس عينيه فاستيقظ . ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه
ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت أودعه كل ما فى نفسه من المحبة والشوق
« ها أنذا أيتها الموت الجميل .. اقتبل نفسى يا حقيقة أحلامى وموضوع
آمالى ! ضمنى يا حبيب نفسى ، فأنت رحوم لا تتركنى ههنا . أنت
رسول الآلهة . أنت يمين الحق فلا تتخل عنى . كم طلبتك ولم أجذك ،
وكم ناديتك ولم تسمع .. قد سمعتنى الآن فلا تقابل شغفى بالصدود ..
عانق نفسى يا حبيبى الموت » .

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتى الفتى وأخذ حقيقته

ووضعها تحت جناحيه .

ولما خلق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : « ولن يرجع إلى الأبدية إلا من جاء من الأبدية » .

على ملعب الدهر

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب لى أسمى وأثمن من جبل ملأه المجد الذى يمنحه الضعيف المسكين للقوى الطامع .
من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الإنسان ، وفى ذاك الجبل تنام نوماً عميقاً
مكتنفة ببرايق أحلام مزعجة . فى تلك الدقيقة تتحرر النفس من أعباء
شرائع الإنسان المتباينة ، وفى ذاك الجبل تحبس وراء جدران الإهمال مثقلة
بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل
وتأمية ابن الفارض ، وذاك الجبل كان القوة العمياء التى هدمت هياكل بعلبك
ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوّهة على
فقدان العدل هو أجل وأفضل من عمر يضيعه الإنسان مسروراً على مائدة
الشهوات ، مستسلماً لقضاء الأنانية ، ذاك يوم يطهر القلب بناره
ويفعمه بنوره ، وذا عمر يحيم عليه بمجنحة القتم ويلحده طى طبقات
التراب . ذاك يوم كان يوم العبر . ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا
عمر أنفقه نيرون فى سوق المظالم ، ووقفه قارون على مذبح الطامع ،
وطمره دون جوان فى قبر الجسديات .

وهذه هي الحياة — تمثلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة ،
وتنشدها الأيام كأغنية ، وفي النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة ...

خليلي

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، أن الفاقة التي تقضى عليك بالشقاء هي
هي التي توحى إليك معرفة العدل وتبثك إدراك كنه الحياة ، لرضيت
بقسمة الله . قلت : معرفة العدل لأن الغنى مشغول عن تلك المعرفة
بخزائنه . وقلت : كنه الحياة ، لأن القوى منصرف عنها إلى المجد ، فافرح
إذن بالعدل لأنك لسانه ، وبالحياة لأنك كتابها . وابتهج فأنت مصدر
فضيلة عاضديك ، وعاضد فضيلة الآخرين بيدك .

ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الأرزاء التي أصبحت مغلوبها ، هي
تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى
درجات الاعتبار لقنعت بها إرثا ، وبتأثيراتها مهذبا ، وعلمت أن الحياة
سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وأن الحزن حلقة
ذهبية تفصل بين الاستسلام لما آتى الحاضر والتعلل ببهجة الآتى ، كما يفصل
الصبح بين النوم واليقظة .

خليلي .. إن الفقر يطهر شرف النفس والغنى يبين لؤمها ، والحزن
يلطف العواطف والسرور يدملها ، لأن الإنسان ما برح يستخدم المال
والسرور توصلا للازدياد مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينره عنه
الكتاب ، وباسم الإنسانية ما تأباه الإنسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلا من أرقام
تدل على الأنانية ومحبة الإكثار ، وألفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لأنى
نظرت فوجدت الألوهية ، وهى الذات المعنوية فى الإنسان ، لاتباع
بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر . وتأملت فرأيت الغنى ينبذ ألوهيته
ويحرص على أمواله ، وفنى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

إن الساعة التى تصرفها أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك
من الحقل ، لهى رمز العائلة البشرية المستقبلية .. هى عنوان سعادة
الأجيال الآتية . والحياة التى يصرفها المثرى بين الخزائن لهى حياة دنية
تحاكى حياة الدود فى القبور .. هى رمز الخوف .

والدموع التى تذرئها أيها الحزين ، هى أعذب من ضحك المتناسى ،
وأحلى من قهقهة المستهزئ . تلك دموع تغسل القلب من أدران
البغض ، وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسرى القلب بشواجرة .. هى
دموع الناصرى .

إن القوة التى زرعتها أيها الفقير ، واستغلها الغنى القوى سوف تعود
إليك ، لأن الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذى
عانته أيها الحزين ، ينقلب فرحا بحكم السماء .
سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الأحزان .

حديث الحب

فى بيت منفرد جلس فتى فى صبح الحياة ينظر آنأ من النافذة إلى السماء
المزدانة بالكواكب ، وآونة إلى رسم صبية بين يديه ، رسم تنعكس
خطوطه وألوانه على وجهه فتظهر علته أسرار هذا العالم وخفايا الأبدية .
صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة فى
فضاء تلك الغرفة ، ومبتدعة من مجموعته قلوباً أنارها الحب وأفعمها
الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة
البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :
« يا حبيبة نفسى !

إن الحقائق العظيمة الفاتكة الطبيعة لا تنتقل من بشرى إلى آخر بواسطة
الكلام البشرى المتعارف ، لكنها تختار السكينة سيلاً بين النفوس . وأنا
أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك
التي يكتبها النسيم على وجه الماء تالية كتاب قليبنا على قليبنا .. ولكن مثلما
شاء الله وجعل النفوس فى أسر الأجسام شاء الحب وجعلنى أسير
الكلام .. يقولون يا حبيبى إن الحب ينقلب بالعباد ناراً آكله ، وأنا
وجدت أن ساعة الفراق لم تقو على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت
عند أول لقاء أن نفسى تعرفك منذ دهور ، وأن أول نظرة إليك لم تكن

بالحقيقة أول نظرة ..

يا حبيبتي إن تلك الساعة التي جمعت قلوبنا المنفين عن العالم العلوى ،
هى ساعات قليلة تدعم اعتقادى بأزلية النفس وخلودها . فى مثل تلك
الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهى والمظنون به
ظلماً ..

هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه
حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى إن محبتك لى لم تنشق من
الشفقة على ؟ تلك النظرات التي علمتنى أن أقول لذاتى وللعالمين ، إن
العطاء الذى يكون مصدره العدل هو أعظم من الذى يبتدىء من
الحسنة ؟ وإن المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

أمامى يا حبيبتي حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخذ
ذكرى الإنسان الآتى وتستدعى اعتباره ومحبه . حياة قد ابتدأت عندما
لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأنى مؤمن بكونك قادرة على إظهار القوة
التي أودعنى الله إياها ، متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة ، مثلما تستنبت
الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظلم محبتى لى
ولالأجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال
لتخصيصها بك .

وقام الفتى ومشى يتمهل فى تلك الغرفة ، ثم نظر من النافذة ورأى
القمر قد طلع من وراء الأفق وملاً الفضاء أشعة لطيفة ، فرجع وكتب فى
تلك الرسالة :

« ساحبنى يا حبيبتي فقد ناجيتك بضمير المخاطب ، وأنت نصفى

الجميل الذى فقدته عندما خرجنا من يد الله فى آن واحد .. ساحينى
يا حبيبتى .

الحيوان الأبكم

« وفى نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم »

(شاعر هندى)

فى عشية يوم تغلبت فيه تخيلاى على عاقلتي مررت بأطراف أحياء
المدينة ، ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطمت دعائمه ولم
يبق منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ، ويدل على زوال محزن ، فرأيت
كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف ، واستحكمت
العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين
وسمت عليها أشباح الذل ، وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه
درى أن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة
المهجورة ، البعيدة عن الأولاد مضطهدى الحيوان الضعيف ، فصار
يرمقها بعين آسفة مودعة . فاقتربت منه على مهل ، وادألو عرفت النطق
بلسانه فأعزبه فى شدائده ، وأبدى له شفقة فى بؤسه . ولما دنوت منه
خافنى وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال ، مستنجداً بقوائم شلتها العلة
وراقبها الفناء . وإذ لم يقو على النهوض نظرت إلى نظرة فيها مرارة استرحام
وحلاوة استعطاف .. نظرة فيها انعطاف وملامة .. نظرة قامت مقام
النطق . فكانت أفصح من لسان الإنسان ، وأبلغ من دموع المرأة . ولما

تلاقت عيناى بعينه الحزبتين تحركت عواطفى وتمايلت تأثيراتى ،
فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين
البشر . نظرات مفادها : « كفى ما بى يا هذا . وكفى ما عانيت من
اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الأمراض . امض واتركنى
وسكيتى أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة ، فقد هربت من مظالم
ابن آدم وقسوته ، والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه ، واختبأت بين
خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عنى فما أنت إلا من سكان أرض
ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل . أنا حيوان حقير لكننى
خدمت ابن آدم وكنت فى منزله مخلصاً ووفياً ، وفى رفقة متربصاً
وجاسوساً . كنت شريكاً فى أحزانه ، ومغبوطاً فى أفراحه ، متذكراً أيام
بعده ، مترحباً عند مجيئه ، وكنت أكتفى بفتات مائدته ، وأسعد بعظم
حرده بأضراره . ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الأمراض فى
جسمى أظافرها ، نبذنى ، وأبعدنى عن داره ، وصيرنى ملعبة لصبيان
الأزقة القساة ، وهدفاً لنبال العلل ، ومخطأ لرحال الأقدار . أنا يا ابن آدم
حيوان ضعيف ، ولكنى وجدت نسبة كائنة بينى وبين الكثيرين من
إخوانك البشر ، الذين إذا ما ضعفت قواهم قل رزقهم وساء حالهم ، أنا
مثل جنود يحاربون عن الوطن فى شبيبتهم ، ويستثمرون الأرض فى
كحولتهم ، حتى إذا ما جاء شتاء الحياة وقل نفعهم ، أبعدهم
ونسوهم . أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفريج قلب الشبية ، وسهرت
زوجة فى اللبالي لتربية الأطفال ، وتعبت امرأة لإيجاد رجال المستقبل ،
ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً ، وأمرأ مكروها .. آه

ما أظلمك يا ابن آدم وما أفساك ! » .
 كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم ، وقلبي يفهم ، ونفسي تتراوح
 بين شفقتي عليه وتصوراتي بأبناء جلدتي . ولما أغمض عيني لم أشأ
 إزعاجه فذهبت ..

السلم

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وأحنت الزروع ، وبانت
 النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على أديم السماء ، وسكنت تلك
 الحقول كأن حرب العناصر لم تكن .

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها ، وجثت على سريرها وبكت
 بكاء مرأ ، ثم تصاعدت زفرتها وتجسست أنفاسها الحارة بهذه الكلمات :
 « رده إلتي يا رب ، فقد جفت دموعي وذابت حشاشتي . أرجعه أيها
 الروح القاضى بحكمة تسمو عن نهي الإنسان ، فقد جفاني التجلد
 وتحكم في الأسى . خلصه من بين مغالب الحرب المحددة .. أنقذه من
 الموت القاسى ، وارحمه فتى ضعيفاً جنت عليه قوة القوى فسلبني إياه ..
 تغلبى أيتها الحجة على عدوتك الحرب ، أو خلصى حبيبي فهو من أبنائك ..
 ابتعد عنه أيها الموت ودعه يرئى أو تعال وخذني إليه » .

في تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها
 الهيحاء أحرفاً قرمزية ، واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ، ثم
 أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهيتين ، وبصوت تألفت فيه عوامل
 (دمة وابتسامة)

الحب الخارج ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلى فقد أتى من تبكين من أجله .. افرحى فقد أعاد إليك السلم من سرقة الحرب ، وأرجع إليك فتي الإنسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفى الدمع يا حبيبتى وابتسمى ، لأن للشعوب أئمة ترحم متى عمت قساوة أئمة الشعوب .. لا تعجبنى من إيأى حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيقهقر .. أنا هو ، فلا تحسبيني خيالا جاء من مرتع المنايا ليزور مربعا يسكنه جمالك والسكون : لا تخافى فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنة والنار لتخبر الناس بلغة الحب على الحرب .. أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك » .

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام ، وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقيق واسترجع القلبان ما فقدها عند الوداع .

ولما جاء الصباح وقف الاثنان فى وسط الحقل يتأملان فى جمال الطبيعة ، وبعد سكينة فيها من الأحاديث ما فيها ، نظر الجندى نحو المشرق الأقصى وقال لحبيته : « انظرى الشمس طالعة من الظلمة » .

الشاعر

حلقة توصل بين هذا العالم والآق . منهل عذب تستقى منه النفوس
 العاطشة . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها
 القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على أغصان الكلام وينشد أنغاماً تملأ خلايا
 الجوارح لطفاً ورقة . غيمة ييضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاطم
 وتتصاعد وتملأ وجه السماء وتنسكب لتروى أزهار حقل الحياة . ملك
 بعثته الآلهة ليعلم الناس الإلهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه
 مكيال ملائمة زيتاً عششوت إلهة الحب ، وأشعله أبولون إله الموسيقى .
 وحيد يرئدى البساطة ويتغذى اللطف ، ويجلس على أحضان الطبيعة
 ليتعلم الإبداع ، ويسهر فى سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زراع
 ييدر حبات قلبه فى رياض الشواعر فتنبت زرعاً خصيباً ، تستغله
 الإنسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذى تجهله الناس فى حياته ، وتعرفه عندما يودع هذا
 العالم ويعود إلى موطنه العلوى . هذا الذى لا يطلب من البشر إلا ابتسامه
 صغيرة ، والذى تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة ، والناس
 تبخل بالحيز والمأوى .

فإلى متى أيها الإنسان .. إلى متى أيها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للآلى
 جبلوا أديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن

أنفسهم سلاماً ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين أحنوا الرقاب بنير
الاستعباد ، وتتناسى رجالاً يسكبون نور الأحداق في ظلمة الليل
ليعلموك أن ترى بهاء النهار ، ويصرفون العمر بين مخالف الشقاء كيلاً
تفوتك لذة السعادة .

وأنتم يا أيها الشعراء يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً
عن قساوة الأجيال ، وفزتم بإكليل الغار غصباً عن أشواق الغرور ،
وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء .

يوم مولدى

كنت فى باريس فى ٦ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩٠٨ . فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى .

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتنى السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدرى كم مرة سار القمر حولى ، لكننى لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام . قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب ، حول الناموس الكلى الأعلى . ولكن هو ذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهى كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع إدراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة فى كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها أنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعانى ، ترمز تارة إلى لا شئ ، وطوراً إلى أشياء كثيرة .

إن التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسى فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وتزينى أشباح الليالى الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ،

فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلل أناشيد السواق في الأودية البعيدة
الخالية .

في مثل هذا اليوم من كل سنة ، تجيء الأرواح التي رسمت روحي
متراكضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى
المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرثيات كأنها أسراب من الطير
هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرت هنيئة ثم
طارت ساجحة إلى مكان آخر .

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي العابرة كأنها مرآة ضعيلة ،
أنظر فيها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ،
وملاح الآمال والأحلام والأمانى المتجعدة كملاح الشيوخ . ثم أغمض
عيني وأنظر ثانيه في تلك المرأة فلا أرى غير وجهي ، ثم أحديق بوجهي
فلا أرى فيه غير الكتابة ، ثم أستنطق الكتابة فأجدها خرساء لا تتكلم ،
ولو تكلمت الكتابة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة .

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت
ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذي أحببته عندما كنت
صبياً مازلت أحبه الآن . والذي أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ،
فالحبة هي كل ما أستطيع أن أحصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدني
إياها .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة أتشيب به سراً
وعلناً . ولكن لم أرسل الموت ولا نقضت له عهداً فإنني صرت أحب
الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا

باللذة ، وتشاركاً بإنماء شوق وحنينى ، وتساهما بمحبتى وانعطافى .
وقد أحببت الحرية فكانت محبتى تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس
للجور والهوان ، وتتسع باتساع إدراكى خضوعهم للأصنام الخيفة التى
نحتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها
ملاص شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتى الحرية ،
وأشفق عليهم لأنهم عميان يقبلون أحناك الضواري الدامية ولا
ييصرون . ويمتصون لهاث الأفاعى الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون
قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء
لأننى وجدت لها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت
خيالا شفافا يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع ، وينادى
عابري الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون .

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ،
فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكننى لم أجدها قط فى
سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا
سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها
سمعت نفسى تهمس فى أذنى قائلة : « السعادة صبية تولد وتحمى فى أعماق
القلب ، ولن تجيء إليه من محيطه » . ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة
وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكننى لم أجدها .

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيراً — والناس فى شرعى ثلاثة :
واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت
الأول لتعاسته ، والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامى وليالى
متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتى ، مثلما تتناثر أوراق الشجر
أمام رياح الخريف .

واليوم ، وقد وقفت متذكراً وقوف سائر متعب بلغ منتصف
العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضى حياتى أثراً أستطيع أن أومىء
إليه أمام وجه الشمس قائلاً : هذا لى . ولا أجد لفصول أعوامى غلة
سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة
خطوطاً وألواناً متباينة متساقطة . فى هذه الأوراق المشرقة ، والرسوم
المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى وأحلامى ، مثلما يدفن
الزراع البذور فى بطن الأرض ، ولكن الزارع الذى يخرج إلى الحقل
ويلقى البذور بين ثنايا التراب ، يعود إلى بيته فى المساء آملاً راجياً منتظراً
أيام الحصاد والاستغلال . أما أنا فقد طرحت حبات قلبى بلا أمل ، ولا
رجاء ، ولا انتظار .

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فترأى لى الماضى من وراء
ضباب التنهيد والأسى ، وبان لناظرى المستقبل من وراء نقاب الماضى ،
أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتى ، وأرى وجوه الناس وأسمع
أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل ، وأشعر
بلماس أرواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم ، أنظر فأرى
الأطفال يلعبون ويزدرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين
مقهقهين ، وأرى الفتيان يسرون بعزم رافعين رؤوسهم ، كأنهم
يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشى الغيوم المبطنة بأشعة

الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن وينشن كالأغصان ، ويتسمن كالأزهار ، وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودى الظهور ، متوكئين على العصي ، محدقين بالأرض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . أقف بجانب نافذتى وأنظر متأملاً بجميع هذه الصور والأشباح الساكنة بمسيرها ، المتطيرة بدبيها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم أنظر متأملاً بما وراء المدينة فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكنينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والأودية المنخفضة ، والأشجار النامية ، والأعشاب المتمايلة ، والأزهار المعطرة ، والأنهار المترنمة ، والأطياف المغردة . ثم أنظر إلى ما وراء البرية فأرى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب ، والمدافن والأسرار ، وما على سطحه من الأمواج المزبدة ، الغضوبة المتسارعة المتهاونة ، والأبحر المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملاً بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينهما من الدوافع والجواذب المتسائلة . المتنازعة المتولدة ، المتحولة المتماسكة بناموس لا حده ولا مدى ، الخاضعة لشروع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايتها نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الأشياء من خلال بلور نافذتى ، فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتى بعدها من القرون ، ويظهر لى كيانى ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه ذرة من تهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الأعماق ، سرمدى العلو ، أبدى الحدود .

لكننى أشعر بكيان هذه الذرة .. هذه النفس .. هذه الذات التى أدعوها
« أنا » . أشعر بحراكها ، وأسمع ضجيجها فهى ترفع الآن أجنحتها نحو
العلاء ، وتمتد يداها إلى كل ناحية ، وتتايل مرتعشة فى مثل اليوم الذى
أبانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة :
« سلام أيتها الحياة ! سلام أيتها اليقظة ! سلام أيتها الرؤيا سلام أيها النهار
الغامر بنورك ظلمة الأرض ! و سلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار
السماء ؛ سلام أيتها الفصول ! سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الأرض !
سلام أيها الصيف المديع مجد الشمس ! سلام أيها الخريف الواهب ثمار
الأنعاب وغلة الأعمال ! سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة !
سلام أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام ! سلام أيتها الأجيال المصلحة
ما أفسدته الأجيال ! سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال ! سلام أيها
الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ! و سلام لك
أيها القلب لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ! و سلام
لك أيتها الشفاه لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة » .

الطفل يسوع والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتى ، وكانت الوحدة قاسية
كالموت ، وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا
تشعر الحياة بوجودى ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة ، واليوم قد استيقظت
نفسى ورأتك منتصبه بقرىها ، فتهيت وتهللت ، ثم سجدت أمامك
مثلما فعل ذلك الراعى عندما رأى العليقة مشتعلة .

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتى ، وأشعة الشمس
ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الأرض ، وضجيج أمواج البحر
يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت إلى كل ناحية فلا أرى غير ذاتى
المتوجعة واقفة بجانبى ، وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كالغربان
الجائعة . واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة وسكنت
الأمواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة
محيطه بك كالهالات التى يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة
الهادئة ، عندما يتحطم بمائها الهادئ .

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة
على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة
وكلمة ، وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة يا حبيبتى قد جمعت بين
استعدادات نفسى الغابرة وأمانها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء

الخارجة من قلب الأرض المظلم إلى نور النهار ، تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة .. لأنها جعلت الظلمة في أعماق شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة .

إن شعلات المحبة يا حبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة ، وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد ! فالشعلة الصغيرة تنير خلايا قلب الإنسان الفرد ، هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الأعلى وتنير ظلمات الأمم جميعها ، لأن في النفس الواحدة عناصر وأميال وعواطف لا تختلف قط عن العناصر والأميال والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتى يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الأمم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت فلم تعد تشبع الأرواح من الروحيات . وكان الفكر السامي في رومه يتأمل فيجد أن ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الأبدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الأمم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق إلى الحرية الروحية التي تعلم الإنسان أن يفرح مع قريه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هي الحرية الجميلة التي تخول الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل ، بعد أن يقنع الناس طراً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من ألفى سنة يا حبيبتى ، عندما كانت عواطف القلب

البشرى تحوم مرفرفة حول المراثيات وتخشى الدنو من الروح الكلى الخالد .. عندما كان « بان » إله الأرواح يملأ نفوس الرعاة جزعا ، وبعل إله الشمس يضغط بأيدي كهانه على قلوب المساكين والضعفاء .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لحظة واحدة تنفرد عن الأجيال لأنها أقوى من الأجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التى كانت فى البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر ، وتحسدت وصارت طفلا بين ذراعى ابنة من البشر فى مكان حقير ، حيث يحمى الرعاة مواشيهم من كواسر الليل .. ذلك الطفل النائم على القش اليابس فى مذود البقر .. ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة إلى الروح ، والأفكار التائقة إلى الحكمة .. ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة ، قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للرعى المسكين المتكىء على الأعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس فى زورقه على شاطئ البحيرة ، واستخلص الغبطة يحزن نفسه من أبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعصياً أمام الأبواب . وسكب الجمال بجماله من فينوس وبثه فى روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذى ينثر فى الحقل البنور مع عرق الجبين .

* * *

أولم تكن عواطفى بالأمس كأسباط إسرائيل يا حبيبتى ؟ أما ترقبت

فى سكينة الليل مجيء مخلص ينقذنى من عبودية الأيام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طريق الحياة مثل صهى ضائع بين الأحياء المهجورة ؟ أو لم تكن نفسى كالنواة المطروحة على الصخر لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحيتها .

قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتى ، عندما كانت أحلامي تدب فى جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور .. عندما كان اليأس يلوى أضلعي والضجر يقومها .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لحظة واحدة تنحنى عن سنى حياتى لأنها أجمل من سنى حياتى ، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر إلى من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبي .. هذا الحب العظيم الجالس فى هذا المذود المنزوى فى صدرى .. هذا الحب الجميل الملتف بأقمطة العواطف .. هذا الرضيع اللطيف المتكى على صدر النفس قد جعل الأحزان فى باطنى مسرة ، واليأس مجداً ، والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية ، قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسه النور إلى أجفانى المقرحه بالدموع ، وانتشل يمينه آمالى من لجة القنوط .

كان كل الزمن ليلاً يا حبيبتى فصار فجراً ، وسيصير نهراً لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير . وكانت

حياتي حزناً فصارت فرحاً وستصير غبطة ، لأن ذراعى الطفل قد
ضمتا قلبي وعانقتا نفسى .

مناجاة أرواح

استيقظى يا حبيبتى . استيقظى لأن روحى تناديك من وراء البحار
الهائلة ، ونفسى تمد جناحها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوبة .
استيقظى فقد سكنت الحرية ، وأوقف الهدوء ضجة سنايك الخيل ووقع
أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر فبقيت وحدى مستيقظاً لأن
الشوق ينتشلنى كلما أغرقنى النعاس ، والمحبة تدنينى إليك عندما
تقصينى الهواجس . قد تركت مضجعى يا حبيبتى خوفاً من خيالات
السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لأن تأوى قد أباد
السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عينى . استيقظى !
استيقظى يا حبيبتى واسمعينى !

— ها أناذا يا حبيبى ! قد سمعت نداءك من وراء البحار ، وشعرت
بملمس جناحك فانتبهت وتركت مخدعى وسرت على الأعشاب فتبللت
قدمائى وأطراف ثوبى من ندى الليل ! ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز
المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبى !

— تكلمى يا حبيبتى ! ودعى أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوى
من أودية لبنان . تكلمى فلا سامع غيرى ، لأن الظلمة قد دحرت جميع
المخلوقات إلى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة ، وبقيت وحدى

صاحيا .

قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان
يا حبيبي !

— قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداءً كثيفاً مبطناً بدخان المعامل
وأفاس الموت ، وسترته به أضلع المدينة يا حبيتي !
— قد رقد سكان القرى في أكوأهم القائمة بين أشجار
الجوز والصفصاف ، وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الأحلام يا حبيبي
— قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع
ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم فارتموا على الفرش ، وأشباح الخوف
والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيتي !

— قد سرت في الأودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على
الروابي أرواح الملوك والأنبياء ، فاثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى
وأرنتي عظام الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .
— قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القائمة ، وظهرت من بين
شقوق النوافذ رؤوس أفاعى الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع
أنفاس الأمراض مزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر
النسيان ، وأرنتي مكاره صادوم وآثام عاموره .

— قد تمايلت الأغصان يا حبيبي ، وتحالف حفيفها مع خرير ساقية

الوادی ، ورذدت علی مسامعی نشید سلیمان ورنات قیثارة داود وأغانی الموصلی .

— قد ارتعشت نفوس أطفال الحی وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تهديدات الأمهات المضطجعات علی أسرة الهم والیأس ، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مرأ وزفيراً متقطعاً یملأ الضلوع ندباً ورثاء . .

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق ، وعانقت عطر الیاسمین والبیلسان ، ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطیبة ، وسرت مع تموجات النسیم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنیناً إلى الطیران .. قد تصاعدت روائح الأزقة الکریهة واختمرت بحراثیم العلل ، ومثل أسهم دقیقة خافیة قد خدشت الحس وسممت الهواء .

— ها قد جاء الصباح یا حبیبی ، وداعبت أصابع الیقظة أجفان النیام ، وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل ، وأزالت غشاء اللیل من عزم الحیة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتکفمة بهدوء وسکينة علی کتفی الوادی ، وترنّت أجراس الکنائس وملأت الأثیر نداء مستحجاً معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الکهوف صدی رنینها كأن الطیبة بأسرها قامت مصلیة . وقد غادرت العجول مرابضها ، وترکت قطعان الغنم والماعز حظائرهما ، وانشئت نحو الحقول ترتعی رؤوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندی .. ومشی أمامها الرعاة ینفخون الشبابات ، ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافیر بقدوم الصباح .

(دمة وابتسامة)

— قد جاء الصباح يا حبيبي وانسطت فوق المنازل المكردة أكف
النهار الثقيلة ، فأزيجت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب ،
فبانَت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء إلى المعامل
وداخل أجسادهم يقطن الموت فى جوار الحياة ، وعلى ملاحظهم المنقبضة
قد بان القنوط والخوف كأنهم منقادون قهراً إلى عراق مهلك . ها قد
غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتلاء الفضاء من قلقلة الحديد
ودوى الدواليب وعويل البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع
فيها القوى الضعيف ، ويستأثر الغنى المظلوم بأتعاب الفقير المسكين .

* * *

— ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهى مثل قلب الشاعر المملوء نوراً
ورقة .

— ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبي ، فهى مثل قلب المجرم المفعم بالإثم
والمخاوف .

أيتها الريح

تمرين أنا فرحة مترنحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فإنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يفرقها ، ويتلاعب بأفئدتها وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنسطين مع السهول والمروج ، ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك ملك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ، ويتدفع مع الأقوياء المتشامخين .

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلتته سهام الشمس ثم كفتته بحرارتها .

لكن .. أناذبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد عريتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج ؟ أعليبة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تسعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبيه من رقادها ؟ أميئة كنت أيام الصيف أم هاجعة في قلوب الأثمار ، وبين جففات الكروم ، وعلى ييادر القش ؟ .

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ، ومن الروابي أرواح
الأزهار ، وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التى تحمل أوجاع الحياة
بسكينة ، وبسكينة تلتقى بأفراحها .

أنت تمهمسين فى أذن الورد أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب
تارة ، وطوراً تبتسم ، وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

أنت تبطين هنا وتسارعين هناك وتراكضين هنالك ، ولكنك
لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الإنسان التى تحيا بالحركة وتموت
بالسبات .

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل
الشعراء المترددون . من الجنوب تحيين حارة كالحة ، ومن الشمال تأتين
باردة كالمت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب
تتدفقين شديدة كالبغضاء . أمتقلبة أنتِ كالدهر ! أم أنتِ رسول
الجهات تبلغين إلينا ماتاً تمنك عليه ؟

تمرين غاضبة فى الصحارى فتدوسين القوافل بقساوة ، ثم تلحدينها
بلحف الرمال . فهل أنتِ أنتِ ذاك السيل الخفى المتموج مع أشعة الفجر
بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام فى منعطفات الأودية ، حيث
تتمايل الأزهار شغفاً بك ، وتخاصر الأعشاب سكرأ من أنفاسك ؟ .
تثورين ظلماً فى البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذا أزدبت
حنقاً عليك فتحت فاهها لجة ولقمتها من السفن والأرواح لقما مرة . فهل
أنتِ أنتِ ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الأطفال المتراكضين حول
المنازل ! إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحملين
رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطائرة ؟ هل تذهبين

بها إلى ما وراء الشفق .. إلى ما وراء هذه الحياة ؟ أم تجريها فريسة إلى
المغاور البعيدة والكهوف الخيفة ، وهناك تقذفها يميناً وشمالاً حتى
تضمحل وتختفى ؟ .

في سكينه الليل تبيح لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحلك العيون
اهتزازات أجفانها . فهل أنت ذا كرة ما شعرت به القلوب وما رآته
العيون ؟ .

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته ،
والحزينة تأوهاتنا . وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لطفته ،
والساقطة عويل نفسها . فهل أنت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم
أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها ؟ .

أسامعة أنت هذا النداء ، وهذا العويل وهذا الضجيج وهذا البكاء ،
أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الأكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد
نحوهم الأصوات فلا يسمعون ؟ .
أسامعة أنت يا حياة للسامع ؟ .

رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتى انهمز الأعداء ، وفي ظهورهم تخديش السيوف
ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر ، منشدين أهازيح
النصر ، على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء
الوادي .

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء قم الميزاب ، فظهرت تلك
الصخور الباسقة متشاحنة مع نفوس القوم نحو العلاء ، وبانت غابة الأرز
بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقته الأجيال الغابرة على صدر
لبنان .

ظلوا سائرين وأشعة القمر تتلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة
تتقلد تهليلهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم صهيل فرس واقف
بين الصخور الرمادية كأنه قَدْ منها . فاقربوا منه مستطلعين ، وإذا بجثة
هامدة مرتمية على أديم التراب المجدول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم
قائلاً « أروني سيف الرجل فأعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان
فأحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم
وقال بصوت أجش : « وقد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف
بشدة ، فمن العار أن نزرعه » .

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاخفى فولاده »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة ، وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً » .

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلاً : « أسندوا رأسه ودعوا أشعة الشمس ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد .. وجه فارس قوى يتكلم بلا نطق عن شدة رجولته . وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنه لم يبق لينشد مع رفقاه أهazyج النصر .

ولما أراحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمة عن وجهه المصفر ، دعر الزعيم وصرخ متوجهاً : « هذا ابن الصعبي ! فيا للخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالأطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً .. ذلك السكوت الذى يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة .. ذلك السكوت الذى يترفع عن الدموع والعويل ، فيزيد بترفعه البلية هولا وقساوة .. ذلك السكوت الذى يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى أعماق اللجج .. ذلك السكوت الذى يعلن مجيء العاصفه ، وإن لم تجئ

كان هو أشد فعلا منها .

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن هم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواء منديلا مطرزاً بخيوط الذهب مربوطا حول زنده ، فتأمله سراً وعرف اليد التي غزلت حريره ، والأصابع التي حاكت خيوطه . فستره بالأثواب وتراجع قليلا إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة .. تلك اليد التي كانت تزج بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشي منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعا ببسالته ، فصرع وسوف يرجع إليها محمولا على أكف رفاقه . وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة فتشرب أصولها من دمه ، وتتغذى فروعها من بقاياها فتزداد قوة ، وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل هذه الطلول بطشه وبأسه» .

فقال آخر : « لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه محفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر » .

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنس في هذه الوحدة » . وقال آخر : لاتلحدوا سيفاً مضرجا بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر

سلاحاً تعود هز الألف وعزم السواعد ، بل احمولوها إلى ذويه لأنها خير ميراث » . وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا » . وقال : « لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيح النصر فيشاهد أشلاء الأعداء ، وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر » . وقال آخر : « تعالوا نعليه سرج جواده ، ونسندنه بمجامم القتلى ، ونقلده رحمه ، وندخله الأحياء ظافراً فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حملها من أرواح الأعداء حملاً ثقيلاً » . وقال آخر : « تعالوا نودعه لحف هذا الجبل فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقي مؤنساً ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع أقدام الليالي خفيف الوطأة » . وقال آخر : « لاتغادروه ههنا ففى البرية وحشة مملدة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل ، وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم » . فتقدم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأسكتهم بإشارة ، ثم قال متنهداً : « لاتزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه . ففى ذلك الحى نفس ساهرة تترقب قدمه .. نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الأسنة . فلنعيده إليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبله من جيئه » .

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس خاشعي العيون ، مشوا

— ١٢٢ —

بسكينة مخزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الأرض ويصهل من وقت إلى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والأسى .

بين أضلع ذلك الوادى حيث أشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصر وراء موكب الموت ، وقد مشى أمامهما طيف الحب ساحباً أجنحته المكسورة .

جمال الموت

مرفوعة إلى M. E. H

دعوني أنم فقد سكرت نفسي بالحبّة . دعوني أرق قد فقدت شبت روحى
من الأيام والليالى . أشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعى ،
وانثروا أوراق الورد والترجس على جسدى ، وعفروا بالمسك المسحوق
شعرى ، وأهرقوا الطيوب على قدمى ، ثم انظروا واقرأوا ما نخطه يد
الموت على جبهتى . خلونى غارفاً بين ذراعى الكرى فقد تعبت أجفانى
من هذه اليقظة . اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية
تتمايل فى مسامعى . انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة
نقابةً حول قلبى المتسارع نحو الوقوف . ترمئوا بالأغاني الرهاوية
وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفى ، تأملوا وانظروا شعاع
الأمل فى عيني .

امسحوا الدموع يارفاقى ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار
تيجانها عند قدوم الفجر ، وانظروا عروسة الموت منتصبه كعمود النور
بين مضجعى والفضاء . . أمسكوا أنفاسكم وأصغوا هنيهة واسمعوا معى
خفيف أجنحتها البيضاء . تعالوا ودعوني يابنى أمى ! قبلوا جبهتى بشفاه
متبسمة . قبلوا شفتى بأجفانكم وقبلوا أجفانى بشفاهكم . قربوا

الأطفال إلى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الوردية الناعمة .
 قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابله المتجمدة . دعوا بنات الحى
 يقتربن وينظرن خيال الله فى عيني ، ويسمعن صدى نغمة الأبدية
 متسارعة مع أنفاسي .

الانفصال — ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحى فى فضاء الحرية
 والانعتاق . قد صرت بعيداً بعيداً يا بنى أُمى فالحجبت عن بصيرتى
 جهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلایا الأودية ببحر السكون ،
 وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات
 والعقبات وراء أشباح بيضاء كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ،
 وحمراء كوشاح المساء . قد تضعضعت أغاني أمواج البحر ،
 واضمحلت ترنيمة السواقى فى الحقول ، وسكنت الأصوات المتصاعدة
 من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متألفة مع
 أميال الروح .

الراحة — اخلعوا نسيج الكتان عن جسدى وكفنونى بأوراق الفل
 والزنبق . انتشلوا بقاياى من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر
 البرتقال والليمون . لا تندبونى يابنى أُمى بل أنشدوا أغنية الشباب
 والغبطة . لا تذرفى الدموع يا ابنة الحقول بل ترغمنى بموشحات أيام الحصاد
 والعصير . لا تغمروا صدرى بالتأوه والتنهيد بل ارسموا عليه بأصابعكم
 رمز المحبة ووسم الفرح . لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهن بل
 دعوا قلوبهم تهلل معى بتسبيحة البقاء والخلود . لا تلبسوا السواد حزناً
 على بل تردوا بالبياض فرحاً معنى ، ولا تتكلموا عن ذهابى

بالغصات بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده . مددوني
على أغصان مورقة ، وارفعوني على الأكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرية
الخالية . لا تحملوني إلى الجبانة لأن الزحام يزعج راحتي ، وقضضة
العظام والجماجم تسلب سكينه رقادي . احملوني إلى غابة السرو
واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق .
احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي . احفروا قبراً
وسيعاً لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبى . اخلعوا هذه الأثواب
ودلوني عارياً إلى قلب الأرض . مددوني ببطء وهدوء على صدر أمى .
أغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان
والياسمين والنسرین فتنبت على قبرى ممتصة عناصر جسدى ، وتنمو
ناشرة في الهواء رائحة قلبى ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر
راحتى ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضى آميالى وأحلامى .
اتركوني الآن يا بنى أمى .. أتركوني وحدى أسير بأقدام خرساء مثلما
تسير السكينة في الأودية الخالية . دعوني وحدى وتفرقوا عني بهدوء
مثلما تتفرق أزهار اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان . ارجعوا إلى
منازلکم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه منى ومنكم . اتركوا
هذا المكان ، فالذى تطلبونه صار بعيداً بعيداً عن هذا العالم ..

أغاني — أغنية

في أعماق نفسي أغنية لا ترتدى الألفاظ ثوباً ، أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق . وتحيط بعواطفى كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب . كيف أتهدّها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدّها وقد تعودت سكنى بيت نفسي فأخشى عليها من خشونة الآذان ؟ إن نظرت إلى غنى رأيت خيال خيالها ، وإن لمست أطراف أصابعى شعرت باهتزازاتها . أعمال يدي تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم ودموعى تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة السكينة ويطويها الضجيج ، وترددها الأحلام وتخفيها اليقظة . هي أغنية الحب أيها الناس ، فأى إسحق ينشدّها بل أى داود يربّتلها ؟ . هي أعبق من أنفاس زهرة الياسمين ، فأية حنجرة تستعيدها ، وأصون من سر العذارى فأية أوتار تستبيحها ؟ .

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ، ويقرن العواصف بتهدئة الطفل ، أى بشرى ينشد أغنية الآلهة ؟ .

أغنية الموج

أنا والشاطئ عاشقان ، يرقبهما الهوى ويفصلهما الهواء . أجيئ من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدى بذهب ماله ، وأبرد حرارة قلبه برضائي . عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبي فيضمنني إلى صدره . وفي المساء أترنم بصلاة الشوق فيقبلني . أنا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد ، يأتني المد فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامي على أقدامه . كم رقصت حولي بنات البحر عندما كن يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسن فساعده على التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكا ولم تبسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً ونجست بها إلى الأحياء . وكم سرقت من الأعماق درأاً أهديته إلى ربات الجمال :

في سكينه الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى ، أسهر مترنماً تارة متنهداً أخرى . ويحيي لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة . هذه حياتي وإذا ما عشت أصنعه .

أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق في الأودية . أنا لآلئ جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتنى ابنة الصباح ورصعت في الحقول ، أنا أبكى فتبتسم الطلول ، وأتضع فترتفع الأزهار . الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أنهمل فأبرد غليل هذا وأشفى علة تلك . صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدمي ، وقوس القزح يعلن نهاية سفرى .. كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبي وتنتهى على أكف الموت الهادئ . أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزهارها وعانقت أغصانها . في السكينة أطرق بأناملى اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة . حرارة الهواء تلدني وأنا أقتل حرارة الهواء .. كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل . أنا تنهدة البحر ، أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقل . كذا الحب تنهدة من بحر العواطف ، ودمعة من سماء التفكير ، وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب ، أنا وردة أفتح
 قلبي عند فتوة النهار ، فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني على صدرها .
 أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة . أنا ابتسامة لطيفة
 على شفתי غادة ، يراني الشاب فينسى أتعابه ، وتصير حياته مسرح
 أحلام لذيدة . أنا موحى الشعراء وهادى المصورين ومعلم الموسيقيين .
 أنا نظرة في عين طفل تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلى وتمجد الله .
 تجليت لآدم بحسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان في قد حبيته
 فصيرته حكيما وشاعراً . ابتسمت لهيلانة فخربت تزوادة ، وتوجت
 كليوباترا فعم الأنس في وادى النيل . أنا كالدهر أبنى اليوم وأهدم غداً .
 أنا الله أحيى وأميت . أنا أرق من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من
 العاصفة . أنا حقيقة يا أيها الناس .. أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

الإنسان حبيبي وأنا حبيبته ، أشتاق إليه ويهيم بي . ولكن أواه الى في
 محبته شريكة تشقيني وتعذبه ، وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث
 نذهب ، وتفرقنا كالرقب . أطلب حبيبي في البرية تحت الأشجار
 وبقر البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته وذهبت به إلى المدينة إلى
 الاجتماع والفساد والشقاء . أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة
 فلا أجده ، لأن المادة .. تلك التي ترتدى التراب قد قادتني إلى معادل
 الأنانية حيث يقطن الانهماك . أطلبه في حقل القناعة فلا أجده ، لأن
 عودتي قد قيدته في مغائر الطمع والشراسة . أناديه عند الفجر عندما
 يتسم المشرق فلا يسمعي ، لأن كرى الاستمساك قد أثقل عينيه .
 أداعبه في المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار فلا يحفل بي ، لأن انشغافه
 بمآقي الغد يشغل ضميره . حبيبي يحبني .. يطلبني في أعماله ، وهو لن
 يجديني إلا في أعمال الله . يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم
 الضعفاء وبين الذهب والفضة ، وأنا لا أوافيه إلا في بيت البساطة الذي
 بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة ،
 وأنا لا أدعه يلم ثمغري إلا في الوحدة بين أزهار الطهر . يبتغي الحيلة
 وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلى العمل المنزه .. العمل الجميل . قد تعلم
 حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة ، وأنا سوف أعلمه أن يذرف
 دمة استعطاف من عين نفسه ، ويتهد تنهدة استكفاء ، حبيبي لي وأنا
 له .

أنشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . أنا نجم
هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر . أنا ابنة العناصر التي جبل بها
الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف . أنا هدية
المحبين .. أنا إكليل العرس .. أنا آخر عطية من حي إلى ميت . عند
الصباح أتعاون والنسيم على إعلان مجيء النور ، وفي المساء أشارك مع
الطيور بوداعة . أتميل في السهول فأزيناها ، وأتنفس في الهواء فأعطره
أضرم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة ، وأطلب اليقظة لأحدق بعين
النهار الوحيدة . أنا أشرب خمرة الندى ، وأسمع أغاني الشحارير ،
وأرقص على تصفيق الأعشاب . أنا أنظر إلى العلو دائماً كي أرى النور
ولا أرى خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان بعد .

نشيد الإنسان

« وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس
لكياني انقضاء . سبحت في فضاء اللانهاية وطرت في عالم الخيال
واقتربت من دائرة النور الأعلى ، وها أنا الآن سجين المادة . سمعت تعاليم
كنفوشيوس وأصغيت لحكمة برهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة
المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور إذ تجلى
« يهوه » لموسى ، وفي عبر الأردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي
المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وها أنا الآن أسير الحيرة .
شاهدت قوات بابل ومجد مصر وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف
والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال . جالست سحرة عين دور
وكهنة آشور وأنبياء فلسطين وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة
التي نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة
العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ،
وما زلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع . احتملت قساوة الفاتحين
الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين ، وعبودية الأقوياء

الباغين ، وما برحت ذاقوة أكافح بها الأيام . شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله . أنا كنت منذ الأزل ، وها أناذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

١

القوة تزرع في أعماق قلبي ، وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين . الروح يحى هذه الجفنة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه في نافذة بيتي من أجل العابرين في ظلمة الليل . أنا فاعل هذه الأشياء لأنني أحيا بها ، وإذا منعتني الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت ، فالموت أخلق بنبي منبوذ في أمته ، وشاعر غريب بين أهله . البشر يضجون كالعاصفة ، وأنا اتهدد بسكينة لأنني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلع لجة الدهر ، أما التنهدة فتبقى ببقاء الله . البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج ، وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبرى أحشائي ، لأنني ألفت المادة تميت الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحيه بالأوجاع . البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع . وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد وخارجاً عن أمة واحدة ، فالأرض كلها وطني ، والعائلة البشرية

عشيري ، لأنني وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغر أن ينقسم على ذاته ، والأرض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات . البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ، وأنا وحدي واقف في موقف الرثاء . على أنني أصغى فأسمع من داخلي صوت الأمل قائلا « مثلما تيجي المحبة القلب البشري بالأوجاع ، كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة . فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذة عظيمة ومعرفة كاملة ، لأن الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلا تحت الشمس » .

٢

أحن إلى بلادى لجمالها ، وأحب سكان بلادى لتعاستهم ، ولكن إذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه ، وسقوا أرضه دماء بنيهم وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانهم ، كرهت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى .

أتشبب بذكر مسقط رأسي ، وأشتاق إلى بيت ريت فيه ، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتا من سكانه ومنع مطروداً ، استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي : إن البيت الذي يضمن بالخبز على محتاجه وبالفراش على طالبيه ، هو أحق البيوت بالهدم والخراب . أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادى ، وأحب بلادى

بقسم من محبتي لأرض وطني ، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع
 الإنسانية روح الألوهية على الأرض .. تلك الإنسانية واقفة بين
 الخرائب ، الساترة قامتها العارية بالأطمار البالية الذارفة الدموع السخينة
 على وجنتيها الذابلتين ، المنادية أبناءها بصوت يملأ الأثير أنه وعويلا ،
 وأبناؤها المشغولين عن ندائها بأغاني العصبية ، منصرفون عن دموعها
 بصقل السيوف . تلك الإنسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا
 يسمعون ، وإن سمعها فرد واقترب منها . ومسح دموعها وعزاها في
 شدائد ما قال القوم ، اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف . الإنسانية
 روح الألوهية على الأرض ، تلك الألوهية السائرة بين الأمم ، المتكلمة
 بالحب ، المشيرة إلى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها .
 تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه ، وسقراط فسموه ، والتي
 سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجأهروا باسمها أمام الناس ،
 والناس لا يقدرّون على قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية
 أقسى من القتل وأمر . ولم تقو أورشليم على قتل الناصري فهو حي إلى
 الأبد ، ولا اثينا على إعدام سقراط ، فهو حي إلى الأبد ، ولن تقوى
 السخرية على مسامعي الإنسانية وتابعي أقدام الألوهية ، فسيحيون إلى
 الأبد .. إلى الأبد ..

٣

أنت أخى وكلانا ابن روح واحد قدوس كلى . وأنت ممائل لأننا
 سجيننا جسدين جبلا من طينة واحدة . وأنت رفيقى على طريق الحياة
 ومسعى فى إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت إنسان وقد
 أحبتك يا أخى . قل عني ماشئت فالغد يقضى عليك ، ويكون قولك
 قرينة ظاهرة أمام حكمه ، وبينه صائبة لدى عدله . خذ مني ماشئت
 فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به
 لمطامعى ، فأنت خليقي ببعضه إن كان يرضيك بعضه .

(تم هذا الكتاب بعونه تعالى)

فهرست

صفحة	
٣	المقدمة.....
٦	دمعة وابتسامة — توطئة
٧	حياته الحب
١٠	حكاية
١٤	في مدينة الاموات
١٦	موت الشاعر
١٨	بنات البحر
٢٠	النفس
٢١	ابتسامة ودمعة
٢٤	رؤيا
٢٥	الجمال
٢٧	الحروف النارية
٢٩	بين الخرائب
٣١	رؤيا
٣٤	الأمس واليوم
٣٧	رحماك يانفس رحماك
٣٩	الأرملة وابنها
٤٢	الدهر والأمة

— ١٣٨ —

صفحة	
٤٤	أمام عرش الجمال
٤٦	زيارة الحكمة
٤٨	حكاية صديق
٥١	بين الحقيقة والخيال
٥٣	يا خليلي الفقير
٥٥	مناحة في الحقل
٥٧	بين الكوخ والقصر
٥٩	طفلان
٦١	شعراء المهجر
٦٣	تحت الشمس
٦٥	نظرة إلى الآتي
٦٧	ملكة الخيال
٦٩	يا لائمي
٧١	مناجاة
٧٣	المجرم
٧٤	الرفيقة
٧٧	بيت السعادة
٧٨	مدينة الماضي
٧٩	اللقاء
٨٢	مخبات الصدور
٨٦	القوة العمياء
٨٨	منيتان
٩٠	على ملعب الدهر

صفحة	
٩١ تحليل
٩٣ حديث الحب
٩٥ الحيوان الابهكم
٩٧ السلم
٩٩ الشاعر
١٠١ يوم مولدى
١٠٧ الطفل يسوع والحب الطفل
١١١ مناجاة أرواح
١١٥ أيتها الريح
١١٨ رجوع الحبيب
١٢٣ جمال الموت
١٢٦ أغانى — أغنية
١٢٧ أغنية الموج
١٢٨ « المطر »
١٢٩ « الجمال »
١٣٠ « السعادة »
١٣١ أنشودة الزهرة
١٣٢ نشيد الإنسان
١٣٣ صوت الشاعر

رقم الإيداع ١٩٩١ / ٣٥٢٦
الترقيم الدولي ٠ - ٦٥٧ - ١١ - ٩٧٧

